رؤية VISION 2030
المملكة العربية السعودية
KINGDOM OF SAUDI ARABIA
جامعة أم القرى

مجلة علوم اللغات وآدابها

مجلة علمية محكمة نصف سنوية

العدد (٢٤)

محرم ١٤٤١هـ
سبتمبر ٢٠١٩م

ردمد: ١٦٥٨-٤٦٩٦ -P
ردمد: ١٦٥٨-٨١٢٦ -E

جَماليَّات الانتقال والتخلُّص في جزء عمَّ

د. عمر بن عبد العزيز المحمود

الأستاذ المشارك في قسم البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

https://uq.sa/J2aMjY

ورد البحث في ٩/ ٥/ ١٤٤٠هـ وقُبل للنشر في ٥/ ٨/ ١٤٤٠هـ

جَماليَّات الانتقال والتخلُّص في جزء عمَّ

د. عمر بن عبد العزيز المحمود

الملخص:

اعتنى العلماء منذ القدم بكتاب الله ﷻ، يتدارسون خصائص نظمه ويستجلون طرائق أساليبه، ويوضِّحون وجوه التعبير فيه، ومن أسراره وعجائبه التي لاحظوها: ارتباط سوره وآياته ومشاهده بعضها ببعض حتى كانت كالكلمة الواحدة، فمع نزول القرآن منجَّماً في أحوالٍ وأغراض ومعان مختلفةٍ على مدى نيِّفٍ وعشرين سنة إلا أنَّ ثمة ترابطاً محكماً بين تلك السور والآيات والمشاهد، وستحاول هذه الدراسة أن تقف عند جماليات الانتقال في القرآن الكريم، وتتلمَّس الأسرار البلاغية للتخلُّص في مشاهده، من خلال سور جزء عمَّ التي كانت معظمها مكيةً مبكِّرة النزول، حيث تسعى الدراسة إلى الكشف عن الأثر الذي يتركه حسن الانتقال بين مشاهد السورة الكريمة في تقرير عقيدة التوحيد لدى مخاطبته مشركي مكة في أوائل عصر الإسلام، وكيف استثمر القرآن هذا الفنَّ المتميِّز في طرح موضوعاته التي تضمَّنتها تلك السور.

الكلمات المفتاحية: الانتقال- التخلص- جماليات- جزء عم- بلاغة.

Aesthetics of Transitions in Juz Amma

Abstract:

For years ago, Researchers care about God's holy book (Quraan), studying its features and explaining its esoteric methods as well as unveiling its multi sided expressions. One of the mysteries they noticed is the connection of the Quraan chapters (surahs), verses (ayat) and scenes as if they are one word.

Along with the revelations of the quraan, although its various meanings and contexts within more than twenty years, there is strong correlation between these chapters, verses and scenes. Thus, this study attempts to shed light on the rhetorical mysteries of the scenes' transitions in Juz Amma chapters which are mostly "meccan surahs" that are revealed early. So, this study strives to to uncover the impact that is left upon good transitions within Juz Amma scenes which ascertain the doctrine monotheism in addressing Mecca polytheists at early Islam. In conclusion, this study shows how Quraan invested and exploited this distinguished art (transitions) to discuss its subjects and compositional techniques which are included within Juz Amma chapters.

keywords: moving in, Disposal, Aesthetics, Part of ama, eloquence

المقدمة:

لم يكن إعجاز القرآن الكريم مقصوراً على منحى واحد، بل شمل إعجازُه المناحي كلَّها، بما فيها عظمةُ التعبير البياني الذي كان أبرز مجالات الإعجاز فيه حين نزل على نبينا محمد ﷺ؛ ذلك أنَّ العرب في تلك الفترة كانوا أهل فصاحةٍ وبلاغة، وقد بلغوا أوج مستويات الإفصاح والبيان، فكان القرآن الكريم بما احتوى عليه من إعجازٍ بيانيّ وتعبيريٍّ مُذهلاً لهم.

وقد اعتنى العلماء منذ القدم بكتاب الله ﷻ، يتدارسون خصائص نظمه ويستجلون طرائق أساليبه، ويوضِّحون وجوه التعبير فيه، فعرضوا لحقائقه ومجازاته، وتشبيهاته واستعاراته، وكناياته وبدائعه، إلى غير ذلك من فنونه وأسراره التي لا تنقضي.

ومن أسراره وعجائبه التي لاحظها العلماء: ارتباط سوره وآياته ومشاهده بعضها ببعض حتى كانت كالكلمة الواحدة، فمع نزول القرآن منجَّماً في أحوالٍ وأغراض ومعان مختلفةٍ على مدى نيِّفٍ وعشرين سنة إلا أنَّ ثمة ترابطاً محكماً بين تلك السور والآيات والمشاهد، حيث جاءت كلُّ سورةٍ وكلُّ آيةٍ وكُلُّ مشهدٍ في مكانه المناسب بالنسبة إلى ما قبله وإلى ما بعده، وسموا هذا الترابط وذلك التناسق التناسب أو المناسبة، ورتبوا عليه علماً من علوم القرآن سموه (علم المناسبات)[1].

ولهذا فإنَّ من ملامح الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم قوَّة تصرُّفه في أفانين القول، وروعة أسلوبه، وتناغم سياقاته، والتحام أجزائه، حتى إنك لترى السورة كالآية الواحدة من شدَّة تناسب أجزائها، وانسجام مشاهدها، وهو ما يساعد المتلقي على الإصغاء إلى آيات السورة الكريمة، واستيعاب ما فيها من موضوعات

ومقاصد، ونشاط فكره وذهنه نشاطاً يساعده على التأمُّل والتدبُّر في ألفاظه ومعانيه.

وستحاول هذه الدراسة أن تقف عند جماليَّات الانتقال في القرآن الكريم، وتتلمَّس الأسرار البلاغية للتخلُّص في مشاهد السور، ووقع اختياري على جزء عمَّ ميداناً تقوم عليه الدراسة، حيث إنَّ معظم سوره مكيةٌ مبكِّرةُ النزول، تخاطب المشركين في أوائل الدعوة الإسلامية، أولئك الذين وقفوا في وجه الدعوة، وآذوا رسولها وأتباعه المؤمنين، وسخروا منهم، فجاءت هذه الآيات متناسبةً مع أحوال تلك الفترة، ومراعيةً لمقاماتها، فغلب على هذا الجزء قصار السور ذات الفواصل القرآنية العذبة، والإيقاعات الخفية، والتراكيب المتوازنة، ومن هنا كنتُ مشدوداً إلى الأثر الذي يتركه حسن الانتقال بين مشاهد السورة الكريمة في تقرير عقيدة التوحيد لدى مخاطبته مشركي مكة في أوائل عصر الإسلام، وكيف استثمر القرآن هذا الفنَّ البلاغيَّ المتميِّز في طرح موضوعاته التي تضمَّنتها تلك السور، مقتصراً على ترابط المشاهد داخل السورة الواحدة.

ولتحقيق ذلك فقد تناولت أبرز الأغراض التي تربط بين مشهد ومشهد وفصل وفصل، وتُحسّن الانتقال في جزء عم، وهي: التقرير والإنكار، والتدليل والتعليل، والتسلية والتبشير، وذكر النموذج.

تمهيد

– الانتقال والتخلص:

عرَّف البلاغيون هذا اللون البديعي بأنه انتقال المتكلِّم من فنٍّ إلى آخر بأحسن أسلوب مع تلطُّفٍ وحسن تخلُّص، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال لشدَّة الالتئام بينهما كأنهما أُفرغا في قالبٍ واحد[٢]، وقد ورد عند البلاغيين بأسماءٍ كثيرة منها: الخروج أو حسن الخروج، والتخلُّص أو حسن التخلُّص أو براعة التخلُّص، والمخلص أو حسن المخالص[٣].

وأول من ذكر هذا الفنَّ من البلاغيين هو ابن المعتز وعدَّه من محاسن الكلام[٤]، كما ذكره أبو هلال العسكري وسمَّاه (الخروج من النسيب إلى المدح وغيره)[٥]، ثم تتابع البلاغيون بعد ذلك يوردونه بهذا المعنى كابن الأثير[٦] وابن منقذ[٧] وابن أبي الإصبع[٨] وابن حِجَّة[٩] وغيرهم من البلاغيين.

وقد لخَّص السجلماسي في منزعه هذا الفنَّ البديعيَّ وبيَّن وظيفته بدقة حين قال عنه: «هو إرادة المتكلِّم وصف شيءٍ وهو إنما يريد آخر، ومن شروط هذا النوع لطف التخلُّص ورشاقته، وشرف التغلغل وفخامته، واستقصاء المعنى وغرابته، وقُرب المقصد ومناسبته، انبساطاً روحانياً وطرباً نفسيا»[١٠]، واللافت هنا أن السجلماسي وضع في تعريفه ضوابط مهمة لهذا الفن، إذ اشترط وجود وصف يهيئ للغرض بعده، فإذا خلا الكلام من تهيئة وانتقل إلى غرض آخر لا يعد تخلصا، بل من باب المناسبة، وهو ما عليه شعر القدماء وعليه معاني القرآن وأغراضه.

واللافت أنَّ الخطيب القزويني لم يُدخله ضمن المحسِّنات البديعية، بل جعله ضمن فصلٍ ألحقه بالبديع وسمَّاه (مواضع التأنق في الكلام)[١١]، ولما ذكر رعاية

الملاءمة بين الكلامين علَّق الصعيدي على ذلك بقوله: «الحقُّ أنَّ حسن التخلُّص بهذه الملاءمة يكون من المحسِّنات البديعية»[١٢]. ومهما يكن فإنَّ حسن الانتقال والتلطُّف في الخروج من كلامٍ إلى كلامٍ آخر مع رعاية الملاءمة والتناسب بين الكلامين يدلُّ على حِذق المتكلِّم وقوَّة تصرُّفه، كما أنه يُحرِّك نشاط السامعين ويساعد على إصغائهم.

وحسن الانتقال أو التخلُّص فنٌّ بديعيٌّ ذهب إليه المحدثون من الشعراء، وقلما فات واحداً منهم في انتقاله من غرضٍ إلى غرض، أما الشعراء القدماء فلم يذهبوا هذا المذهب في الخروج من غرضٍ إلى آخر، بل وُجد أكثرهم يخرج من وصف الإبل وذكر الديار والنسيب إلى ما قصد إليه بقوله: دع ذا أو عدِّ عن ذا وما أشبه ذلك، وقد سمَّى البلاغيون ذلك بالاقتضاب، الذي رأوا أنه انتقال المتكلِّم من كلامٍ إلى آخر من غير تمهيد أو تخلُّصٍ حَسَن، وهو مذهب الشعراء الأوائل ومن يليهم من المخضرمين ومن يتقلَّد طريقتهم من المحدثين[١٣].

لكنهم ذكروا أنَّ من الاقتضاب ما يقرب من التخلُّص وهو فصل الخطاب، كقول القائل بعد حمد الله: أما بعد، ومن الفصل الذي هو أحسن من الوصل لفظة (هذا)، وهي علاقةٌ وكيدةٌ بين الخروج من كلامٍ إلى كلامٍ آخر غيره، كقوله عز وجل: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (ص: ٤٩)، فقد انتقلت الآيات من غرضٍ إلى غرضٍ عن طريق لفظة (هذا)، وذلك من فصل الخطاب الذي هو ألطف موقعاً من التخلُّص[١٤].

وقد اختُلف في وقوع التخلُّص في القرآن فقيل: لا يقع فيه لأنه يقع في الغالب متكلَّفا، والقرآن لا تكلُّف فيه[١٥]، وقيل: إنه قد وقع فيه، ومثَّلوا لذلك بأوائل سورة يوسف، فالسورة موضوعةٌ لقصة يوسف، وقد افتُتحت بذكر القرآن الكريم وبعض ما يتصل به، ثم تُخلِّص إلى قصة يوسف هذا التخلُّص البديع،

وكما في سورة المعارج فقد ذُكر في مطلعها عذاب الكافرين وأنه لا دافع له من الله، ووُصف الله ﷻ بذي المعارج تخلُّصاً إلى قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤)، وهذا من ألطف التخلُّص وأحسنه(١٦). ويحوي القرآن الكريم كثيراً من شواهد هذا الفن، ولعلَّ قلة الشواهد التي يوردها البلاغيون عليه راجعةٌ إلى دقته وخفائه، يقول ابن أبي الإصبع: «وهو دقيقٌ يكاد يخفى في غير الشعر إلا على الحاذق من ذوي النقد، وهو مبثوثٌ في الكتاب العزيز إذا تُتُبّع وُجد، كابتداء فصولٍ تجدها متنافرةً في الظاهر لما قبلها من الفواصل أو غيرها، فلا يكاد يجمع بينهما إلا بعد إنعام النظر، وتدقيق الفكر، هذا إذا كنتَ ممن له دربةٌ بهذه الصناعة»(١٧).

وكلام ابن أبي الإصبع واضحٌ في بيان أهميَّة هذا الفن، وصعوبة الوقوف على أسراره ولطائفه، وهو ما دعا الباحث إلى محاولة تتبُّعه في القرآن الكريم، والسعي إلى الكشف عن بعض جماليَّاته؛ رغبةً في إضاءة جانبٍ من جوانب الإعجاز البلاغي للذكر الحكيم، عسى أن يُوفَّق في ذلك.

بقي أن أشير هنا إلى أن المفسرين كان لهم جهود في دراسة هذا الفن، إذ تناولوه تحت باب المناسبات بين الآيات والسور، وأوضحوا أن لهذا التناسب أربعة أنواع: التنظير والمضادة والاستطراد والانتقال، كما تحدثوا عن أنواع المناسبات؛ كمناسبة الآية للآية التي تليها، والمناسبة بين أول السورة وخاتمتها، والمناسبة بين خاتمة السورة وفاتحة التي تليها(١٨).

– سور جزء (عمَّ):

جزء (عمَّ) هو الجزء الثلاثون الأخير من أجزاء القرآن، ويبتدئ هذا الجزء بسورة (النبأ) وينتهي بسورة (الناس)، ويضُمُّ سبعاً وثلاثين سورة هي: النبأ،

النازعات، عبس، التكوير، الانفطار، المطففين، الانشقاق، البروج، الطارق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الشرح، التين، العلق، القدر، البينة، الزلزلة، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهمزة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، النصر، المسد، الإخلاص، الفلق، الناس، و(عمَّ) هي سورة النبأ، وقد سُمِّيت بذلك لورود أول كلمة فيها؛ ولذلك فقد سمَّاها بعض المفسِّرين بسورة (عمَّ)[١٩]، وسُمِّي هذا الجزء باسمها لأنها أول سورةٍ فيه.

وأغلب سور هذا الجزء مكية، وموضوعات السور المكية غالباً ما تُعنى بأصول العقيدة والدعوة إلى أصول الإيمان الاعتقادية من الإيمان بالله ﷻ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والحشر والجزاء، والإيمان بالرسالة وصدق نبوته ﷺ، وإقامة الأدلة العقلية والكونية على كل ذلك، ومحاجَّة المشركين ومجادلتهم، وإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادتهم الأصنام، وبيان أنها بمعزل عن الألوهية واستحقاق العبادة، إضافةً إلى ذكر قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم؛ تسليةً للنبي ﷺ، وليكون في قصصهم عبرة وعظة، ولبيان أنَّ دعوة الرسل جميعاً واحدة[٢٠].

ولا عَجَبَ أن تكون الموضوعات على هذا النحو؛ فالمخاطبون كانوا قوماً لُدَّا، ذوي خصومةٍ وحجاج، وشدةٍ وضراوة، لكنهم في جاهليةٍ تُعمي وتُصم، منغمسين في حمأة الشرك والوثنية، يشركون بالله، ويعبدون الأوثان، ويُنكرون الوحي، ويُكذِّبون بيوم الدين، ولا يُقرِّون بالنبوات ولا بالبعث وما بعده. ونظرةٌ واحدةٌ في سور هذا الجزء تُنبئك بأنَّ موضوعاتها لم تكن بدعاً من ذلك، فقد تحدَّثت أغلب هذه السور عن الأدلة الكونية والعقلية على قدرة الله ﷻ، وأنه هو وحده المستحق للعبادة، كما تحدَّثت عن الأدلَّة على وجود حياةٍ أخرى بعد هذه الحياة الدنيا بإيراد مشاهد مفزعةٍ من ذلك اليوم العظيم، وانقسام الناس

حينها إلى فريقين: فريق المؤمنين في الجنة -جعلنا الله منهم-، وفريق الكُفَّار في جهنم وساءت مصيرا.

لقد كان لسور هذا الجزء «طابعها الخاص الذي يجعلها وِحدةً على وجه التقريب في موضوعها واتجاهها وإيقاعها وصورها وظلالها وأسلوبها العام»[٢١]، فهي تُركِّز على «حقائق معينة قليلة العدد، عظيمة القدر، ثقيلة الوزن، وعلى إيقاعات معينة يلمس بها أوتار القلوب، وعلى مشاهد مُعيَّنة في الكون والنفس، وعلى أحداثٍ مُعيَّنة في يوم الفصل»[٢٢].

وفي الجزء كلِّه تركيزٌ على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى في هذه الأرض من نبات وحيوان، وعلى مشاهد هذا الكون، وعلى مشاهد القيامة العنيفة ومشاهد الحساب والجزاء، واتخاذ كُلِّ ذلك دلائل على الخلق والتدبير والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة مع التقريع بها والتخويف والتحذير[٢٣]. وقد تحدَّثت بعض السور عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم والمصير الذي آلوا إليه لما كذَّبوا رسلهم، كقصة موسى عليه السلام مع فرعون في سورة النازعات، وقصة صالح عليه السلام مع قومه في سورة الشمس، كما تحدَّثت بعضها عن امتنان الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ وعلى قومه كما في سور الضحى والشرح والقدر والفيل وقريش، وغيرها.

وقد تتحدَّث بعض السور عن التهديد والوعيد الذي سيلقاه بعضُ مَن آذى النبي ﷺ وصدَّ الناس عن دعوته، أو مَن اشتُهِر بأفعاله الذميمة من الكُفَّار حتى نزل به وبأمثاله آياتٌ تحكي هذه الأفعال والعذاب الذي ينتظره، وتتضح مثل هذه الموضوعات في سور العلق والهمزة والماعون والمسد[٢٤].

ولم تختلف السور المدنية في هذا الجزء كثيراً عن السور المكية في الموضوع، فنرى مشهداً من مشاهد يوم القيامة في سورة الزلزلة، وإثباتاً للوحي ونبوة الرسول ﷺ وجزاء المؤمنين والكافرين في سورة البينة، وامتنان الله ﷻ على نبيه ﷺ بنصره العظيم وفتحه المبارك ودخول الناس في الإسلام في سورة النصر.

– التقرير والإنكار:

من أهمِّ الأغراض البلاغية التي يلحظها المتأمِّل في الانتقال من مشهدٍ إلى مشهدٍ في سور هذا الجزء التقرير والإنكار، حيث يتحدَّث القرآن الكريم في مواضع كثيرةٍ من هذا الجزء عن قضيةٍ أو أكثر من قضايا الإيمان الرئيسة، ثم ينتقل إلى مشهدٍ آخر قد لا يبدو وثيق الصلة بما قبله، غير أنَّ الذي يجيل النظر ويطيل التدبُّر بين المشهدين يلحظ أنَّ العلاقة وثيقةٌ بينهما، وأنَّ الانتقال من المشهد السابق إلى المشهد اللاحق انتقالٌ بديعٌ وتخلُّصٌ معجز، حيث تتمحور هذه العلاقة في تقرير ما كان القرآن يثبته في المشهد الأول من حديثٍ عن أصولٍ من أصول الدعوة الإسلامية التي كانت سور جزء عمَّ تسعى إلى إثباتها وترسيخها في النفوس والعقول، والإنكار على المشركين الذين كذَّبوا بهذه الدعوة، وأنكروا أصولها، وسخروا من رسولها، وصدُّوا عنه وآذوه، حيث أسهمت كثيرٌ من الانتقالات بين مشاهد سور هذا الجزء في تقرير هذه الأصول، والإنكار على مَن كذَّب بِها، ولعلَّ وقوفاً على نَماذج من ذلك يكشف عن مدى اهتمام القرآن الكريم بهذا الغرض البارز الذي أدَّته تلك الانتقالات.

يقول الحق ﷻ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ١–٧).

تقوم سورة النبأ على إثبات البعث بالأدلَّة المختلفة، فهو موضوعها الرئيس، حيث ابتدأت بوصف تساؤل المشركين عن يوم القيامة، ثم الإخبار عنه وما يتبعه من النشور والجزاء، وأعقبته بتهديد المشركين على إنكارهم إياه، ثم أقامت الأدلَّة والبراهين على إمكانه بتعداد مظاهر قدرة الله ﷻ على الخلق والإبداع، ووصفت ألوان عذاب الكافرين وأنواع نعيم المتقين.

وافتُتحت السورة باستفهامٍ عن تساؤل جَماعةٍ عن النبأ العظيم، وفي هذا الافتتاح تشويقٌ ثُمَّ تَهويلٌ لِما سيُذكر بعده، فهو من الفواتح البديعة لِما فيه من أسلوبٍ عزيزٍ غير مألوف، ومن تشويقٍ بطريقة الإجمال ثُمَّ التفصيل ليتمكَّن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تَمكُّن[٢٥].

والضمير في (يتساءلون) يعود على أهل مكة وإن لَم يسبق ذكرهم للاستغناء عنه بِحضورهم حسًّا، مع ما في الترك من التحقير والإهانة؛ للإشعار بأنَّ ذكرهم مِمَّا يُصان عنه ساحة الذكر الحكيم[٢٦]، ويَجوز أن يكون التساؤل مستعملًا في حقيقته بأن يسأل بعضهم بعضاً سؤال متطلِّعٍ للعلم؛ لأنهم حينئذٍ لَم يزالوا في شكٍّ من صحة ما أُنبئوا به، ويَجوز أن يكون مستعملاً في المجاز الصوري بأن يتظاهروا بالسؤال وهم موقنون بانتفاء وقوع ما يتساءلون عنه، فيكون قصدهم الإنكار والاستهزاء والسخرية والتهكُّم، والاستفهام بـ(ما) في هذه الآية مستعمَلٌ في التشويق إلى تلقِّي الخبر[٢٧]، «وإيثار المضارع للدلالة على كثرة ذلك التساؤل وتكراره، وكونه كان ديدناً لَهم لا تَخلو منه لقاءاتُهم ولا مَجالسهم»[٢٨].

والنبأ العظيم هو البعث ويوم القيامة؛ ووصفه بالعظيم زيادةٌ في التنويه به، وفي هذه الآية بيانٌ لشأن المسؤول عنه إثر تفخيمه بإبهام أمره، وإيراده على طريقة الاستفهام من علاَّم الغيوب للتنبيه على أنه خارجٌ عن دائرة علوم الخلق[٢٩]، وفي

وصف هذا النبأ باختلافهم تأكيدٌ لخطره وإشعارٌ بِمدار التساؤل عنه[٣٠]، وجيء بالجملة الاسمية في صلة الموصول لتفيد أنَّ ذلك الاختلاف متمكِّنٌ منهم ودائمٌ فيهم[٣١]، وتقديم (فيه) للاهتمام بالمجرور، وللإشعار بأنَّ الاختلاف ما كان من حقِّه أن يتعلَّق به، مع ما في ذلك من رعايةٍ للفاصلة[٣٢].

ثم لا يُجيب عن التساؤل، ولا يدلي بحقيقة النبأ المسؤول عنه، فيتركه بوصفه العظيم، وينتقل إلى التلويح بالتهديد الملفوف، وهذا أوقع من الجواب المباشر وأعمق في التخويف، وفي هذا التهديد ردعٌ للمتسائلين هزوا، ومعنى (ثم) الإشعار بأنَّ الوعيد الثاني أبلغ من الوعيد الأول وأشد، فتكرير الردع مع الوعيد دليلٌ على غاية التهديد[٣٣]، وموقع هذه الجملة موقع الجواب عن السؤال؛ ولذلك فُصلت ولم تُعطف لأنَّ ذلك طريقة السؤال والجواب.

وبِهذا التهديد المرعب يَختتم القرآن الكريم مشهد تساؤل المشركين عن النبأ العظيم لينتقل بالسامع إلى مشهدٍ آخر، يفتتحه باستفهامٍ جديد، يَمتدُّ عن طريق العطف إلى بقيَّة الآيات التي تُجسِّده، وهو مشهدٌ يأخذ المتلقي في جولةٍ سريعةٍ مهيبةٍ في أرجاء هذا الكون الواسع، ويكشف له عن حشدٍ هائلٍ من الصور والمشاهد الكونية التي تفصح بما لا يدع مَجالاً للشكِّ في قدرة المولى ﷻ المطلقة على التدبير والتقدير.

وفي هذا الانتقال اللطيف بين المشهدين أسرارٌ بلاغيةٌ وجماليةٌ تكشف عن قوة الصلة بينهما، مع ما يبدو للوهلة الأولى من بُعدٍ بينهما؛ ولذا حرص الزمخشري على الكشف عن الوشائج التي تربط بين مشهد التساؤل ومشهد هذه الجولة الكونية، يقول: «فإن قلتَ: كيف اتصل به قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ قلتُ: لما أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق مَن يُضاف إليه البعث هذه

الخلائق العجيبة الدالة على كمال القدرة؟ فما وجه إنكار قدرته على البعث وما هو إلا اختراعٌ كهذه الاختراعات؟ أو قيل لهم: ألم يفعل هذه الأفعال المتكاثرة؟ والحكيم لا يفعل فعلاً عبثا، وما تنكرونه من البعث والجزاء مؤدٍّ إلى أنه عابثٌ في كلِّ ما فعل!»[٣٤].

فالصلة بين المشهدين صلة تقريرٍ وإنكار، فإنَّ المولى ﷻ لَمَّا أثبت في المشهد الأول تساؤلهم عن البعث واختلافهم فيه انتقل إلى هذا المشهد الكوني ليقرِّر لهم أنه قادرٌ على البعث، ولينكر عليهم اختلافهم فيه، وذلك من خلال أسلوب الاستفهام الذي قصد منه التعجُّب من عدم إيمانهم بيوم القيامة وما يحصل فيه من البعث والنشور والحساب مع أنهم يرون هذه الآيات الباهرة التي تدلُّ على قدرة خالقها ومُسيِّرها على كلِّ شيء.

يقول البقاعي مؤكِّداً على هذه الصلة بين المشهدين: «ولَمَّا حقَّق لهم أمره تحقيق مَن هو على غاية الوثوق بما يقول، دلَّ على ذلك بما لا يحتمل شكّاً ولا وقفةً أصلاً، فقال مُقرِّراً لهم، ومنكراً عليهم التساؤل بما ندب إليه من التأمُّل، وقرَّر به من النظر في باهر آياته وغرائب مخلوقاته التي أبدعها من العدم دلالةً تامَّةً عظميةً على كمال القدرة مع تمام الحكمة الموجب للقطع بكلِّ ما نبَّهت عليه الرسل من الشرائع والبعث والجزاء: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾»[٣٥].

لقد كشفت هذه النظرات المتأمِّلة عن مناسبة هذا المطلع المشوِّق والمخيف لما جاء بعده من مشاهد، حيث كان محور السورة يدور حول إثبات عقيدة البعث التي تساءل عنها المشركون بسخريةٍ واستهزاءٍ وتهكُّمٍ في هذا المطلع؛ ولذا جاءت بقيَّة آيات السورة مُقرِّرةً ومنكرةً لتُقيم الدلائل والبراهين على قدرة ربِّ العالمين، وتُوجِّه أنظار هؤلاء المتسائلين هزواً وقلوبهم إلى هذا الحشد من الخلائق والظواهر التي تشي بما وراءها من التدبير والتقدير، والقدرة على الإنشاء

والإعادة، والحكمة التي لا تدع أمر الخلائق سُدىً بلا حسابٍ ولا جزاء، ومن هنا تلتقي هذه المقاطع بالنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون، فإنَّ الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فنائه.

ومن النماذج التي برز فيها التقرير والإنكار بوصفه غرضاً بارزاً من أغراض الانتقال بين مشهدين في سور هذا الجزء ما يلحظه المتأمّل في قوله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، إلى نهاية قصة موسى وفرعون، ثم قوله ﷻ بعد ذلك: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا﴾ (النازعات: ١٥-٢٦، ٢٧).

فقد كان القرآن الكريم يعرض مشاهد سريعةٍ من قصة موسى عليه السلام مع فرعون الذي طغى وكذَّب به وبدعوته وادَّعى الربوبية، فأهلكه الله ﷻ وجعله عبرةً لمن يعتبر، ثم انتقل المشهد القرآني إلى خطابٍ عامٍّ يدخل فيه منكرو البعث دخولاً أوليا، يستفهم فيه عن أيِّهما أصعبُ وأشدُّ على المولى ﷻ في تقديرهم: خلقهم أم خلق السماء والأرض والجبال، وغيرها من مشاهد الطبيعة التي يعاينونها بأبصارهم في كلِّ وقت.

واللافت أنَّ غالب المفسرين الذين توقفوا عند هذا المشهد لا يربطون بينه وبين مشهد قصة موسى وفرعون، بل يغفلون وجود صلةٍ بين المشهدين، ويرون أنَّ مشهد السماء يتصل اتصالاً وثيقاً بالمشهد الأول من السورة، ذلك الذي يحكي فيه القرآن إنكار المشركين للبعث، حين قالوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (النازعات: ١١، ١٢)، وكأنهم يعدُّون قصة موسى مشهداً معترضاً بين المشهدين؛ ولذا يقول الرازي بعد أن فسَّر آيات مشهد قصة موسى: «ثم اعلم أنه تعالى لَمَّا ختم هذه القصة رجع إلى مخاطبة منكري

البعث»[٣٦]، ويقول أبو السعود عن مشهد السماء أنه «خطابٌ لأهل مكة المنكرين للبعث بناءً على صعوبته في زعمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعدما بين كمال سهولته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾»[٣٧] (النازعات: ١٣).

غير أنَّ مَن يتأمَّل في المشهدين، ويطيل النظر في العلاقة بينهما سيلحظ صلةً وثيقةً ولطيفةً جعلت الانتقال من أولهما إلى الثاني في قِمَّة الإعجاز والبلاغة، وهو انتقالٌ يتَّخذ من معنى التقرير والإنكار مرتكزاً ينطلق منه في كون العلاقة بين المشهدين في غاية التناسب والانسجام، ويخدمان في الوقت نفسه الفكرة الرئيسة للسورة الكريمة، ويتناغمان مع أجواء بقية المشاهد التي تُكوِّنها.

وبيان ذلك أنَّ من أغراض إيراد قصة موسى عليه السلام بيان مدى الطغيان الذي بلغ بفرعون، وكيف أنَّ جرأته على الله ﷻ تجاوزت كلَّ حد، بسبب اغتراره بما أُوتي من ملكٍ وقوَّة، حتى وصل به الأمر إلى ادِّعاء الربوبية، والتكذيب بالرسول الذي أُرسل إليه، فماذا كان مصيره؟ وكيف أضحى مآله؟ أهلكه المولى ﷻ وأخذه أخذ عزيزٍ مقتدر، وصوَّر هذا المآل بعبارةٍ قصيرةٍ وجيزةٍ ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ تكشف عن مدى قدرة المولى ﷻ على هذا الطاغية وأمثاله، ومدى هوانهم عليه جلَّ شأنه، وفي ذلك تهديدٌ وتحذيرٌ ووعيدٌ لغيره مِمَّن يتجرَّأ على الله ﷻ، ويعصي رسله أو يسخر منهم.

ومن هنا جاء الخطاب لمشركي مكة في مطلع المشهد الثاني، حيث إنَّ المتفكِّر في مصير فرعون وهو مَن هو في الملك والقُوَّة، ينبغي أن يعي سعة قدرة المولى ﷻ ومدى انتقامه، وهذا من شأنه أن يزرع في القلوب الخشية، ويبعث في النفوس الخوف والرهبة منه سبحانه، ولذلك ختم القرآن مشهد قصة موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾، وإذا كان الله ﷻ أهلك فرعون

الذي هو أعظم قوَّةً من مشركي مكة المنكرين للبعث، فإنَّ قدرته عليهم من باب أولى، وحتى لو لم يحصل الاعتبار بهذه القصة وادَّعوا أنهم يتفوَّقون على فرعون فهلا نظروا إلى ما فوقهم من سماء، وأبصروا ما تحتهم من أرض، وتفكَّروا فيما حولهم من جبال، ثم تدبَّروا في أنفسهم وعقدوا مقارنةً بينها وبين هذه المخلوقات من حيث صعوبة خلقها وإنشائها على المولى ﷻ في تقديرهم المتقاصر! حينها سيدركون أنَّ القادر على خلق مخلوقاتٍ بهذه العظمة وتلك الضخامة سيكون من باب أولى قادراً على خلقهم وإعادة إحيائهم.

وقد تنبَّه بعض المفسرين المعاصرين إلى هذه الصلة بين المشهدين، وسعى إلى الكشف عمَّا بينهما من علاقةٍ وثيقة، فقال بعد تفسيره لمشهد قصة موسى: «لما كان فرعون على تلك المثابة من الطُّغيان والكفر، وكان من أسباب طغيانه الملك والقوَّة كما في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ (الفجر: ١٠)، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤)، وقوله عنه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف: ٥١)، وهذه كلُّها مظاهر طغيانه وعوامل قوته، خاطبهم الله بما آل إليه هذا الطغيان، ثم خاطبهم في أنفسهم مُحذِّراً من طغيان القوة ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾، حتى لو ادَّعيتم أنكم أشدُّ قوةً من فرعون الذي أخذه الله نكال الآخرة والأولى، فهل أنتم أشدُّ خلقاً أم السماء؟»[٣٨].

ويعتمد القرآن على التقرير والإنكار بوصفهما من أبرز العلاقات بين المشاهد في سور جزء عمَّ، ولا عجب في ذلك؛ حيث إنَّ أغلب سوره مبكِّرة النزول، وتخاطب مشركي مكة، وكان تقرير أصول الإيمان والإنكار على مَنْ كفر بها من

أهمِّ الأساليب التي يؤكِّد عليها القرآن في تلك الفترة، ومن النماذج الدالَّة على ذلك ما يجده المتأمِّل في قوله ﷻ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: ١-٦).

فقد تحدَّثت سورة الانفطار عن مشاهد الانقلاب الذي يحدث في الكون، وعن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربِّه بسبب إنكاره للبعث والحساب في ذلك اليوم العظيم الذي فيه ينقسم الناس إلى فريقين: أبرار وفُجَّار، كما أنها أكَّدت على سعة علم المولى ﷻ من خلال حفظه لأعمال عباده استعداداً للمحاسبة عليها.

وقد صوَّر القرآن الكريم في المشهد الأول صوراً للانقلاب الكوني الذي سيسبق أحداث يوم القيامة، حيث إذا وقعت هذه الأمور يحصل الحشر والنشر، وتعلم كلُّ نفسٍ ما قدَّمتْ وأخَّرتْ من أعمالٍ في هذه الدنيا، وبما أنَّ المراد من هذه الآيات تغيير العالم وفناء الدنيا فإنه يُلاحظ الترتيب، فيُبدأ أولاً بتخريب السماء التي هي كالسقف، ويلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب، ثم يُخرَّب ما على وجه الأرض التي هي كالبناء وهو تفجير البحار، ثم تُقلبُ الأرض ظهراً لبطنٍ وبطناً لظهر، وهو بعثرة القبور(٣٩).

ثم انتقل السياق في المشهد الثاني إلى خطاب الإنسان، والإنكار عليه وتوبيخه على جحوده لنعم ربِّه واغتراره بجوده وكرمه عليه، والنداء هنا للتنبيه تنبيهاً يُشعر بالاهتمام بالكلام والاستدعاء لسماعه، أمَّا المقصود بالإنسان هنا فقد روى السيوطي أنَّ هذه الآية نزلت في أُبيّ بن خلف(٤٠)، والأصحُّ أنَّ الآية تتناول جميع العصاة؛ لأنَّ خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي من أجله نزلت الآية.

وقد لا يلحظ المتلقي ذو النظرة العجلى صلةً بين المشهدين، حيث تخفى عليه العلاقة بين مشاهد الانقلاب الكوني التي تنبئ بحدوث البعث، وبين خطاب الإنسان وتوبيخه على جحوده لربه واغتراره بكرمه، غير أنَّ المتدبّر المتأمِّل طويلاً بين المشهدين سيدهش من الصلة الوثيقة بينهما، وسيعجزه ذلك الانتقال البديع والتخلُّص الباهر الذي يجده بين مشاهد هذه السورة الكريمة.

وتتَّضح جماليَّات الانتقال في المناسبة اللطيفة بين المشهدين، فبعد أن كشف القرآن عن مشاهد الانقلاب الكوني أوضح أنه إذا حدثت هذه الأمور فإنَّ كلَّ نفسٍ ستدرك ما قدَّمت من عمل خيرٍ أو شر، وما أخَّرت من الأعمال بسبب التكاسل والإهمال، وفي هذا زجرٌ عن المعصية وترغيبٌ في الطاعة[٤١]، والمقصود «جميع النفوس بالإنباء وبالحساب، وبما يجعل لها ﷻ بقوة التركيب من ملكة للاستحضار.. والدالُّ على إرادة العموم التعبير بالتنكير في سياق التخويف والتحذير»[٤٢]، «وإثبات العلم للناس بما قدَّموا وأخَّروا عند حصول تلك الشروط لعدم الاعتداد بعلمهم بذلك الذي كان في الحياة الدنيا، فنُزِّل منزلة عدم العلم»[٤٣].

وحيث أخبر المولى ﷻ بأنَّ النفوس في ذلك تعلم ما عملتْ من خيرٍ أو شرٍّ وهذا يدعوها إلى الإيمان بالبعث والنشور والحساب، ومن ثمَّ استثمار هذه الدنيا بالأعمال الصالحة والتقرُّب إلى الخالق العظيم والتوبة من كلِّ ذنبٍ أو شر، فما الذي دعا الإنسان إلى فعل عكس ذلك؟ وما الذي جعله يشرك ويكفر ويفعل الشرور؟ وأيُّ سببٍ أدَّى به إلى الاغترار بربِّه الكريم الذي خلقه وأفاض عليه بالنعم؟ إنَّ هذا الأمر محلُّ استنكارٍ وتعجُّب، وهو في الوقت نفسه توبيخٌ وتقريعٌ وزجرٌ ووعيد، خاصَّةً أنَّ هذا الاستفهام يأتي بعد مشهدٍ مخيفٍ مرعب، ينقلب فيه الكون، وتتغيَّر فيه نواميس الحياة.

يقول أبو السعود محاولاً الكشف عن العلاقة بين المشهدين: «أيُّ شيءٍ خدعكَ وجرَّأك على عصيانِه وقد علمتَ ما بينَ يديكَ من الدواهِي التامَّةِ والعراقيلِ الطَّامة وما سيكونُ حينئذٍ من مُشاهدةِ أعمالِك كُلِّها؟»(٤٤)، أي أنَّ حصول هذه المشاهد سيستدعي يقين النفوس بما قدَّمته من أعمال، وهذا يستدعي الإنكار على الإنسان الذي يدلُّ فعله في الدنيا على إنكاره لهذه الحقائق الإيمانية، حيث جحد نعم ربِّه واغترَّ بكرمه وحلمه.

ويؤكِّد البقاعي على هذه الصلة من خلال النصِّ على غرض الإنكار الذي يربط بين المشهدين، فيقول بعد أن فسَّر آيات المشهد الأول: «ولما كان ذلك خالعاً للقلوب، وكان الإنسان إذا اعتقد البعث قد يقول تهاوناً ببعض المعاصي: المرجع إلى كريمٍ ولا يفعل بي إلا خيراً، أنتج قوله منادياً بأداة البعد لأنَّ أكثر الخلق مع ذلك معرض، منكراً ﷻ على مَنْ يقول هذا اغتراراً بخدع الشيطان إنكاراً يهدُّ الأركان»(٤٥)، وهو تفسيرٌ واضحٌ في التأكيد على أنَّ إنكار الإنسان لما قبله من حقائق هو الذي استدعى هذا المشهد الذي يخاطبه فيه القرآن، ويستفهمه مُنكراً ومُوبِّخاً ومُهدِّدا.

وأشار بعض المفسِّرين إلى علاقاتٍ أخرى غير هذه العلاقة، حيث ذكروا أنَّ مشهد خطاب الإنسان بمثابة الدليل على ما قبله من مشاهد البعث والنشور والجزاء، والبرهان على صِحَّة هذه الأصول الإيمانية، فالنيسابوري يقول قبل شروعه في تفسير المشهد الثاني: «ولما أخبر عن وقوع الساعة والحشر بيَّن ما يدلُّ عليه عقلا»(٤٦)، ونجد تفسيراً أكثر وضوحاً عند الرازي الذي أبان عن أنَّ ذلك من وجهين، الأول: أنَّ الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع مواد نعمه عن المذنبين، كيف يجوز في كرمه ألا ينتقم من الظالم؟ والثاني: أنَّ القادر على خلق هذه البنية الإنسانية ثم سوَّاها وعدلها لم يفعل ذلك عبثاً بل لحكمةٍ عائدةٍ إلى العبد تظهر في دار الجزاء، وهذا يثبت أنَّ الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي

يقدر على الخلق والتسوية والتعديل يوجب على العاقل أن يقطع بأنه ﷻ يبعث الأموات ويحشرهم(٤٧).

وذهب بعض المعاصرين إلى أنَّ مشهد خطاب الإنسان المغترّ ما هو إلا «استئنافٌ ابتدائي؛ لأنَّ ما قبله بمنزلة المقدِّمة له لتهيئة السامع لتلقِّي هذه الموعظة؛ لأنَّ ما سبقه من التهويل والإنذار يهيّء النفس لقبول الموعظة؛ إذ الموعظة تكون أشدُّ تغلغلاً في القلب حينئذٍ لما يشعر به السامع من انكسار نفسه ورقَّة قلبه، فيزول عنه طغيان المكابرة والعناد، فخطر في النفوس ترقُّب شيءٍ بعد ذلك»(٤٨)، وهي إشارةٌ لا بأس بها، مع أنها لا تفصح عن قوَّة العلاقة بين المشهدين والجماليات العلائقية بينهما، ولا أعلم كيف غفل عن المناسبات اللطيفة التي أشار إليها المفسِّرون قبله، ولو ذكرها مع ما ذكر لكان التفسير أشمل، ولتكشَّف للمتلقي جماليَّات الانتقال بين المشهدين بصورةٍ أكمل وأجمل.

ولا أودُّ أن أتجاوز هذا الشاهد دون أن أشير إلى ما ذكره المفسِّرون من أسرارٍ جماليةٍ لإيثار وصف الربِّ بالكرم، وهو وصفٌ يقتضي الاغترار به مع أنَّ الإنكار على الإنسان وتوبيخه كانا لأجل ذلك، والمقام مقام تهديدٍ ووعيد، والسياق سياق زجرٍ وتوبيخ، فقد ذهب بعضهم إلى أنَّ إيثار صفة الكرم على سائر أسمائه وصفاته فيه تلقينٌ لهذا الإنسان بالإجابة عن سؤال الله ﷻ، وذلك بأنَّ يقول: غرَّني كرم الكريم(٤٩). وقد ردَّ ابن كثير هذا بقوله عند تفسير الآية: «هذا تهديد، لا كما يتوهَّمه بعض الناس من أنه إرشادٌ إلى الجواب... بل المعنى في هذه الآية: ما غرَّك يا ابن آدم بربِّك الكريم -أي العظيم- حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق»(٥٠)، ثم يُعلِّق على الرأي السابق بقوله: «وهذا الذي تخيَّله هذا القائل ليس بطائل؛ لأنه إنما أتى باسمه (الكريم) ليُنبِّه على أنه لا ينبغي أن يُقابَل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال السوء»(٥١).

وقد أكَّد أبو السعود هذا التناسب بين فاصلة الآية وأولها بقوله: «والتعرُّض لعنوان كرمه تعالى للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مداراً لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت فإنَّ ربك كريمٌ قد تفضَّل عليك في الدنيا وسيفعل مثله في الآخرة... بل هو مما يُوجب المبالغة في الإقبال على الإيمان والطاعة والاجتناب عن الكفر والعصيان، كأنه قيل: ما حملك على عصيان ربِّك الموصوف بالصفات الزاجرة عنه الداعية إلى خلافه»[٥٢].

ويرى الرازي أنَّ مقتضى الظاهر أن تكون الفاصلة (الحكيم)، وأنَّه لأجل هذا قال في سورة التين بعد الاستدلال بخلق الإنسان:﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (التين: ٨)، وقد أجاب عن هذا بقوله: «الكريم يجب أن يكون حكيما؛ لأنَّ إيصال النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنيَّاً على داعية الحكمة لكان ذلك تبذيراً لا كرما، أمَّا إذا كان مبنيَّاً على داعية الحكمة فحينئذٍ يُسمَّى كرما... فكان ذِكْر الكريم ههنا أولى من ذِكْر الحكيم»[٥٣].

ثم إنَّ كثرة الكرم تُوجب الجِدَّ والاجتهاد في الخدمة، والاستحياء من الاغترار والتواني، فكرمه ﷻ السابق بالخلق وغيره لا يُوجب كرماً لاحقاً بالعفو والغفران لجميع المعاصي؛ لأنَّ غاية الكرم هو أن يبتدئ بالنعم من غير عوضٍ ولا غرض، أما الكريم إذا أمر المنعَم عليه بشيءٍ وتلقَّاه بالعصيان فليس من الكرم أن يغمض عن جرمه، بل قد يُعدُّ ذلك ضعفاً وذلَّة، لاسيما إذا كان المأمور به هو معرفة المنعِم[٥٤].

ومن النماذج التي يلحظ فيها المتأمِّل أنَّ غرض التقرير والإنكار يُمثِّل علاقةً وثيقةً بين مشهدين في السورة الكريمة ما جاء في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ثم قوله ﷻ بعد ذلك: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (الفجر ٦-١٤، ١٥). فقد

عرض القرآن الكريم في المشهد الأول بعض قصص الأمم السالفة ممن عاندوا الله ورسوله، ولجُّوا في طغيانهم، فأوقع بهم شديد العذاب وأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر؛ ليكون في ذلك زجرٌ لهؤلاء المكذِّبين، وتثبيتٌ للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول ﷺ وناصروه، وتطمينٌ لقلوبهم بأنَّ أعداءهم سيلقون ما يستحقُّون من الجزاء.

ثم انتقل السياق القرآني إلى مشهدٍ آخر، قد لا يبدو للمتأمل أنَّ له صلةً بما قبله، وهو مشهد الحديث عن شأنٍ من شؤون الإنسان، وبيَّن أنه إذا أنعم الله عليه وأوسع له في الرزق ظنَّ أنه قد اصطفاه ورفعه على مَنْ سِواه وجنَّبه العقوبة، وإذا ضيَّق عليه الرزق ظنَّ أنه قد أهانه وصغَّر مِن قيمته ولم يكن له قيمةٌ بعمله. وفي هذه الآيات إشارةٌ إلى ما كانت قريشٌ تقوله وتستدلُّ به على إكرام الله ﷻ وإهانته لعبده، وذلك أنهم كانوا يرون أنَّ مَن عنده الغنى والثروة والأولاد فهو المكرم، وبضدِّه المهان(٥٥).

وتتضح جماليَّات الانتقال في المناسبة اللطيفة التي تربط بين المشهدين، فبعد أن عرض القرآن مشهداً من قصص الأمم السالفة الذين كذبوا برسلهم وكشف عن مآلهم والعذاب الذي لحق بهم أُختتم بالتأكيد على أنَّ الله ﷻ بمرصدٍ من أعمال بني آدم، يراقبهم ويجازيهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، ثم انتقل الحديث إلى الإنكار على الإنسان وتوبيخه على قِلَّة اهتمامه بأمر الآخرة وفَرْط تماديه في إصلاح المعاش الدنيوي، فكأنه قيل: إنه ﷻ لبالمرصاد لعباده، فهو يراقب أعمالهم ويحاسبهم عليها، وذلك كُلُّه من أجل الآخرة؛ لأنه ﷻ لا يطلب إلا السعي لها، أما الإنسان الشقيُّ الغافل عن طاعة ربه فلا يهمُّه ذلك، وإنما مطمح أنظاره ومرصد أفكاره الدنيا ولذائذها، فإن نال منها شيئاً رضي وإلا سخط، وكان اللائق أن لا يهمَّه إلا ما يطلبه الله ﷻ ولا يكون حاله ذلك(٥٦).

فالقرآن الكريم يشير في المقطع الأول إلى أنَّ الله ﷻ يرى ويحسب ويُحاسب ويُجازي وَفْق ميزانٍ دقيقٍ لا يُخطئ ولا يظلم، ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء، فأما الإنسان فتُخطئ موازينه وتضلُّ تقديراته، ولا يرى إلا الظواهر ما لم يتصل بميزان الله ﷻ.

كما تتضح جماليةٌ أخرى لهذا الانتقال، ويتكشَّف غرضٌ آخر للتخلُّص من المشهد الأول إلى الثاني، حيث إنَّ في ذلك تذكيراً للمشركين بأنَّ حالهم مماثلٌ لحال أولئك ترفاً وطغياناً وبطرا، وتنبيههم على خطئهم؛ إذ كانت لهم من حال الترف والنعمة شبهةٌ توهَّموا بها أنَّ الله جعلهم محلَّ كرامة، فحسبوا أنَّ إنذار الرسول ﷺ إياهم بالعذاب ليس بصدق؛ لأنه يُخالف ما هو واقعٌ لهم من النعمة، وحصروا جزاء الخير في الثروة والنعمة، وقصروا جزاء السوء على الخصاصة وقتْر الرزق، فكان هذا الوهم مُسوِّلاً لهم التكذيب بما أُنذروا به من وعيد(٥٧).

كما أنَّ هذا التوهُّم يستلزم ظنَّهم أنَّ أفعال الله ﷻ جاريةٌ على غير الحكمة، فأعلم الله رسوله ﷺ والمؤمنين بالحقيقة الحقَّة، ونبَّههم أنَّ الأحوال الدنيوية أعراضٌ زائلةٌ ومتفاوتةٌ في الطول والقصر، وفي ذلك كلِّه إبطالٌ لعقيدة أهل الشرك وضلالهم الذي كان غالباً على أهل الجاهلية(٥٨).

لقد كشفت هذه النماذج عن شدَّة ترابط المشاهد في سور جزء عم، وأنَّ القرآن الكريم لا ينتقل من مشهدٍ إلى مشهدٍ دون أن يكون بينهما علاقةٌ وثيقة، ومناسبةٌ لطيفة، تجعل هذا الانتقال في غاية الإعجاز والبلاغة، كما كشفت عن أنَّ الإنكار والتقرير من أهمِّ العلاقات التي تربط بين المشاهد، فحين يتحدَّث المشهد الأول عن إثبات أصلٍ من أصول الإيمان، ويسعى إلى تأكيد مبدأ رئيسٍ من مبادئ الدعوة الإسلامية، يُعقِّب القرآن الكريم بمشهدٍ ثانٍ يكون بمثابة تقرير هذه الحقائق، من خلال أسلوبٍ تقريريٍّ يسعى من خلاله إلى تقرير المنكرين

على الإيمان بها بما يذكر لهم من دلائل القدرة والقُوَّة، أو من خلال الإنكار عليهم حين كذَّبوا بها وأنكروها، ولا غرو أن يبرز هذا الغرض بوصفه من أبرز أغراض الانتقال بين مشاهد سور هذا الجزء، حيث إنَّ سوره من أوائل ما نزل من الذكر الحكيم، وكان الخطاب فيها مُوجَّهاً نحو مشركي مكة، وكان من الطبعيِّ أن تؤكِّد مشاهد هذه السورة على حقائق الإيمان، وتُقرِّر المشركين عليها، وتنكر عليهم جحدها والتكذيب بها، مع أنهم يرون الدلائل على صدقها، ويعاينون البراهين على صحتها.

– التدليل والتعليل:

التدليل والتعليل وإثبات الحقائق بالحُجَّة والبرهان من أبرز الجماليات التي يؤدِّيها الانتقال بين مشاهد سور جزء عمَّ، ولا غرو في ذلك؛ فسور هذا الجزء تُمثِّل في مُجملها بدايات الدعوة الإسلامية التي كانت في ذلك الوقت تسعى إلى ترسيخ مبادئ الدعوة وأصول الإيمان لدى المخاطبين؛ ولذلك فقد كان تأييد هذه الأصول بالدليل القاطع والحجة الواضحة من أبرز وظائف الانتقال من مشهدٍ إلى مشهدٍ في هذه السور الكريمة، وذلك من خلال تعليل ما يرد في المشهد السابق من إثباتٍ للدعائم والأصول التي قامت عليها الدعوة الإسلامية، أو من خلال التدليل على صِحَّتها والتأكيد على صدقها، حتى تترسَّخ في النفوس وتثبت في العقول، فيكون الإيمان بغيرها تبعاً لَها، وهو ما يحتاجه المخاطبون المنكرون في تلك الفترة.

ويمكن بيان أهميَّة هذا الغرض وعناية القرآن به من خلال الوقوف عند بعض النماذج التي جاء فيها التدليل والتعليل غرضاً بارزاً من الأغراض التي تربط بين مشهدين في سورةٍ من سور هذا الجزء، فمن ذلك ما يلحظه المتأمل في قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ إلى أن يقول ﷻ: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ (النبأ: ٦-١٦، ١٧).

فقد تحدَّثتُ في المبحث السابق عن المشهد الأول من هذا النموذج، وذكرتُ أنَّ المولى ﷻ توجَّه بالاستفهام التقريري الإنكاري إلى هؤلاء المشركين الذين تساءلوا عن النبأ العظيم وظلوا يختلفون فيه، فخاطبهم القرآن الكريم بهذا الاستفهام مفصحاً من خلاله عن عددٍ من مشاهد هذا الكون الفسيح، وكاشفاً لهم عن قدرته ﷻ على إعادة إحيائهم، وصدق هذا النبأ العظيم الذي يختلفون فيه.

ثم انتقل السياق القرآني إلى مشهدٍ آخر من مشاهد هذه السورة، تحدَّث فيه عن يوم القيامة وما يحدث فيه من أحوالٍ وأهوال، وما يكون فيه من البعث والنشور والجزاء، وبين المشهدين من العلاقة والارتباط ما يدلُّ دلالةً واضحةً لا تقبل الشكَّ على بلوغ كلام الله ﷻ قِمَّة الإعجاز البلاغي والبياني.

فبعد أن ذكر القرآن الكريم بعض مشاهد هذا الكون الفسيح بغرض تقرير النبأ العظيم الذي اختلف فيه المشركون وأنكروه في المشهد الأول من هذه السورة، عاد السياق إلى الحديث عن النبأ العظيم الذي أُفتتحت هذه السورة، مُتوّجاً بذلك الدلائل والبراهين التي كشف عنها في المشهد السابق؛ سعياً إلى تأكيد وقوع يوم القيامة، ومُدلِّلاً على أنَّ الذي خلق هذا الكون الفسيح وصوَّر هذه المشاهد البديعة قادرٌ على البعث والنشور، وأنَّ مَنْ قدر على ذلك فهو قادرٌ من باب أولى على جزاء الإنسان وثوابه وعقابه، ومن غير المنطقيّ أن يهمله ويتركه عبثاً وقد أنعم عليه كلَّ هذه النعم، وتفضَّل عليه بما تفضَّل.

يقول البقاعي رابطاً هذا المشهد بما قبله: «ولما ذكر ما دلَّ على غاية القدرة ونهاية الحكمة فدلَّ قطعاً على الوحدانية لأنه لو كان التعدُّد لم تكن الحكمة

ولم تتمَّ القدرة، فأثمر المحبة لمن اتصف بذلك، فأنتج للطائع الشوق إلى لقائه، والترامي إلى مطالعة كمال نعمائه، وللعاصي ما هو حقيقٌ به من الخوف من لقائه ليردَّه ذلك عن إعراضه وإبائه، أتبع ما أعلم أنه ما ذكره إلا للدلالة على النبأ العظيم في لقاء العزيز الرحيم، فقال منتجاً عما مضى من الوعيد وما دلَّ على تمام القدرة مؤكِّداً لأجل إنكارهم: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾»[٥٩]، وواضح هنا أنَّ البقاعي يؤكِّد على علاقة التدليل، ويشير إلى علاقة الإنكار، حيث إنَّ تأكيد وجود هذا اليوم بعد كلِّ هذه الدلائل الباهرة يدلُّ على إنكارهم وتكذيبهم، ولا غرو في ذلك، فهذه الأغراض تتناسب مع حال القوم المكذبين، وتتناسق مع حالهم في تلك الفترة.

وإذا كان القرآن الكريم قد أورد المشاهد الكونية والطبيعية في المشهد الأول على سبيل التقرير والإنكار على المشركين المكذبين بالبعث، وسعياً إلى إثبات الدليل على وقوعه وقدرته عليه، فإنه يعود مرَّةً أخرى في هذا المشهد ليؤكِّد على وقوعه، وإلى ذلك أشار النيسابوري الذي قال بعد أن ختم تفسيره للمشهد الأول بقوله: «واعلم أنَّ هذه التسعة نظراً إلى حدوثها وإمكانها تدلُّ على الفاعل المختار، ونظراً إلى ما فيها من الإتقان والإحكام تدلُّ على كمال علمه وحكمته الذاتية. وبعد ثبوت كماله في هذه الأوصاف لم يبقَ للمتأمِّل شكٌّ في إمكان الحشر، وقد أخبر الصادق عن وقوع هذا الممكن فوجب الجزم به، على أنَّ في إخراج النبات بعد جفافه ويبسه دليلاً ظاهراً على إمكان إخراج الموتى من القبور وبعثهم؛ فلهذا رتَّب على هذه البيانات قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾»[٦٠]، والنيسابوري هنا يربط بشكل وثيق بين المشهدين من خلال إشارته إلى طبيعة هذه العلاقة.

والتفصيل بعد الإجمال نوعٌ من أنواع الإطناب غرضه التأكيد، حيث يُكرَّر الكلام مرتين، مرَّةً على سبيل الإجمال، ومرَّةً على سبيل التفصيل، فيثبت في الذهن، ويترسَّخ في النفوس، ويعي المتلقِّي مدى أهميته وشدَّة عناية المتكلم به، وقد نبَّه إلى هذه العلاقة أبو السعود الذي قال: «﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ شروعٌ في بيان سرِّ تأخيرِ ما يتساءلونَ عنه ويستعجلونَ به قائلينَ: متَى هذا الوعدُ إنْ كنتُم صادقينَ، ونوعُ تفصيلٍ لكيفيةِ وقوعِه وما سيلقونَهُ عند ذلكَ من فنونِ العذابِ حسبما جَرى به الوعيدُ إجمالاً»[٦١]، وتبعه ابن عاشور في ذلك[٦٢]، والحقُّ أن الرأيين الأخيرين يربطان مشهد يوم الفصل بمشهد النبأ العظيم الذي أُفتتحت به السورة، ويمكن أن تنسحب هذه العلاقة على مشهد المظاهر الكونية، حيث إنَّ هذا المشهد بمثابة إنكارٍ وتقريرٍ ودليلٍ على النبأ العظيم وقيام البعث والقدرة عليه، فالمشاهد الثلاثة في غاية الترابط ومنتهى الانسجام، وكلُّها تخدم الفكرة الرئيسة في هذه السورة، وهي إثبات البعث والقدرة عليه، والتأكيد على الحشر والنشر والجزاء.

ومن النماذج التي يلحظ فيها المتأمِّل علاقة التعليل والتدليل بين مشهدين في السورة ما نراه في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾، إلى أن ختم المولى ﷻ قصة أصحاب الأخدود، حيث قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (البروج: ١-١٢، ١٣).

فقد ذكر الله ﷻ في مطلع هذه السورة قصة أصحاب الأخدود الذين عذَّبوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم بالنار بسبب إيمانهم وتوحيدهم، ثم بيَّن المولى ﷻ وعيد هؤلاء الكفار، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووصف ما أُعِدَّ لهم من الثواب كِفاء أعمالهم. ثم انتقل القرآن الكريم إلى مشهدٍ آخر يتحدَّث فيه عن شدَّة عذاب الله وبطشه وقدرته على البدء والإعادة، وبيان بعض صفاته الدالَّة على تمام قدرته.

ويتَّضح حسن الانتقال في مناسبة مطلع السورة وما اشتملت عليه من قصة أصحاب الأخدود لهذه الآيات التي بدأت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ مناسبةً وثيقة، فهما معاً يرتبطان بالجوّ العامّ للسورة الكريمة، ويتناسبان مع المقصد الأساس لها، وهو إظهار عظمة الله ﷻ وجليل صفاته، وقدرته على إبادة الأمم الطاغية في كُلِّ حين.

ويتَّضح التلاؤم والتناسق بين المشهدين في أنَّ جملة ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ عِلةٌ لمضمون قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: ١٠)، أي إنه ﷻ سيجازيهم هذا الجزاء؛ لأنَّ بطشه شديدٌ على الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، وهذا من دلائل عدله ﷻ، يقول البقاعي في توضيح هذه الصلة: «ولما كان لا يثيب ويُعذِّب على هذا الوجه إلا من كان في غاية العظمة، قال مُعلِّلاً لفعله ذلك، دالاً بذلك التعلُّل على ما له من العظمة التي تتقاصر الأفكار دون عليائها، مؤكِّداً لما للأعداء من الإنكار: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾»[٦٣]، وهو تفسيرٌ ينصُّ على علاقة التعليل، ويشير بوضوح إلى أن المشهد الثاني تعليلٌ للمشهد الأول، وبيانٌ لسبب تعذيب هؤلاء الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم في نار الأخدود ولم يتوبوا عن هذه الأفعال، كما يلحظ المتأمِّل أنَّ القرآن الكريم حشد المؤكِّدات في افتتاح المشهد الثاني، ولا غرو في ذلك، فإنَّ أفعال أصحاب الأخدود بالمؤمنين وفتنتهم لهم وتعذيبهم تدلُّ على أنَّ هؤلاء القوم منكرون تماماً لقدرة الله ﷻ، وعذابه الشديد، وقوة انتقامه مِمَّن يؤذي عباده المؤمنين.

ويتبيَّن التناسب كذلك من جهةٍ أخرى في أنه ﷻ لما ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات أولاً وذكر وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثانياً أردف ذلك الوعد والوعيد بالتأكيد، فقال لتأكيد الوعيد: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾،

ثم قال لتأكيد الوعد: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾، وإليهما أشار بقوله فيما سبق: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(٦٤).

وفي هذا الانتقال اللطيف تحذيرٌ من الله ﷻ لقوم رسوله ﷺ أن يحلَّ بهم من عذابه ونقمته نظير الذي حلَّ بأصحاب الأخدود على كفرهم وتكذيبهم رسوله ﷺ وفتنتهم المؤمنين والمؤمنات منهم(٦٥)، وهو انتقالٌ بديع، يلفت الأنظار إلى التركيز على موضع العبرة من ذكر أمثال هذه القصص. ووُجِّه الخطاب للنبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ لأنَّ بطش الله بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات فيه نصرٌ لدعوته، وتثبيتٌ له وللمؤمنين معه(٦٦).

ومن النماذج التي تكشف عن اهتمام القرآن الكريم بالتدليل أو التعليل بوصفهما نوعاً من العلاقة التي تربط بين مشهدين في السورة ما جاء في قوله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ ثم قوله ﷻ بعد مشهد الفُجَّار: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ إلى أن قال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (المطففين: ٧-٢٨، ٢٩).

فقد كانت الآيات في هذه السورة تتناول في المشهد الأول فريقين من الناس طالما توقَّف القرآن عندهما في مثل هذه السور، ويصف حالهم في الآخرة، فالفُجَّار الذين كذَّبوا بيوم الدين، ووصفوا القرآن بأساطير الأولين محجوبون عن ربهم يوم القيامة، وليس لهم من مآلٍ سوى نار الجحيم، أمَّا الأبرار فهم على الأرائك ينظرون، وفي وجوههم نضرة النعيم، وسقياهم الشراب المختوم بالمسك الممزوج بالتسنيم.

وبعد أن كان السياق في مشهدٍ أخرويٍّ يصف أحوال هذين الفريقين انتقل بعد ذلك إلى مشهدٍ دنيويٍّ يصوِّر أولئك الفُجَّار المجرمين وهم يسخرون من

المؤمنين، ويتغامزون فيما بينهم إذا مرُّوا بهم، ويصفونهم بالضلال على وجه التأكيد والتقرير، وإذا رجعوا إلى أهلهم بعد كلِّ هذا لا يؤنِّبهم ضميرٌ ولا يخالطهم ندم، بل يظلُّون مستمتعين مبتهجين بما فعلوا، وهنا يُلِحُّ على المتلقِّي سؤالٌ مُهِمٌّ عن سبب هذا الانتقال، والمسوِّغ الذي جعل السياق القرآني يهبط من مشهدٍ أخرويٍّ إلى مشهدٍ دنيوي، ثم ما هي العلاقة التي تربط بين المشهدين؟ وما الصلة التي سوَّغت حضور المشهد الثاني في هذا النموذج؟

إنَّ المتأمِّل في هذه السورة العظيمة والمتدبِّر في مشاهدها والموضوعات التي تناولتها آياتها الكريمة سيدرك بلا شكٍّ روعة التعبير القرآني وإعجازه البلاغي والبياني، وجمال أسلوبه الباهر وقوَّة تصرُّفه في القول، وسيجد أنَّ العلاقة بين المشهدين وثيقةٌ قوية، وأنَّ الانتقال إلى المشهد الثاني كان لا بُدَّ منه، وأنه لا يغني عنه انتقالٌ إلى أيِّ مشهدٍ آخر، وأنَّ هذا الانتقال يخدم الفكرة الرئيسة التي تتحدَّث عنها السورة والجوَّ العامَّ الذي يعايشه المتلقِّي فيها.

فبعد أن أطنبت آيات المشهد الأول في المقابلة بين مصير الفريقين؛ الفُجَّار والأبرار، وتُقرِّر الجزاء الذي سيناله كلُّ واحدٍ منهم في الآخرة، وتصف بعض مظاهره وألوانه، أراد القرآن الكريم أن يكشف عن السبب وراء كلِّ هذا، والعِلَّة التي من أجلها نال كلُّ فريقٍ هذا الجزاء، وهو ما يجعل السياق القرآني يعود بالزمن إلى الوراء، وينتقل إلى الحياة الدنيا ليكشف عن الأفعال التي استحقَّ معها كلُّ فريقٍ هذا الجزاء وذلك المصير، وهو ما كان ينتظره السامع ويتعطَّش إلى معرفته، خاصَّةً حين عايش في الآيات السابقة مشاهد العذاب وصور النعيم، وأدرك مآل الفُجَّار ومصير الأبرار.

ولهذا فقد جاء المشهد الثاني ليُصوِّر ما كان يفعله الفُجَّار المجرمون بالمؤمنين الأبرار في الحياة الدنيا، وكيف كانوا يسخرون منهم، ويضحكون عليهم، ويؤذونهم

بالغمز واللمز، ومع أنَّ القرآن الكريم لم يتعرَّض لموقف المؤمنين من هذا الفعل، إلا أنَّ السامع سيدرك أبعاده وتأثيره في نفوسهم، خاصَّةً أنَّ المؤمنين كانوا آنذاك في حالةٍ يُرثى لها من الفقر والضعف وقِلَّة العدد، وحين يتصوَّر السامع ذلك سيعي تماماً أسباب الجزاء الذي ناله كلُّ فريقٍ في المشهد الأول، والعِلَّة التي من أجلها آل كلٌّ منهما إلى ذلك المصير.

واللافت أنَّ كثيراً من المفسرين أغفل بيان الصلة بين المشهدين على اختلافهم فيها وفق ما سأبينه بعد قليل، وهو ما دعا ابن عاشور إلى أن يقول بعد أن توقَّف عند المناسبة بينهما وسعى إلى إيضاحها: «وقد اتّضح بما قرَّرناه تناسب نظم هذه الآيات... وذلك مما أغفل المفسرون العناية بتوضيحه»[٦٧].

ولهذا يقول البقاعي عند تفسيره للمشهد الثاني من هذا النموذج ساعياً إلى بيان صلته بما قبله: «ولما ذكر سبحانه جزاء الكافر بالجحيم وجزاء المؤمن بالنعيم، وكان من أجل النعيم الشماتة بالعدو، علَّل جزاء الكافر بما فيه شماتة المؤمن به؛ لأنه اشتغل في الدنيا بما لا يغني، فلزم من ذلك تفويته لما يغني، فقال مؤكِّداً لأنَّ ذا المروءات والهمم العاليات والطبع السليم والمزاج القويم لا يكاد يُصدِّق مثل هذا، وأكَّده إشارةً إلى أنَّ من حقِّه أن لا يكون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾»[٦٨]، ويقول ابن عاشور: والمقصود من ذكره أنه بعد أن ذكر حال المشركين على حِدة، وذكر حال المسلمين على حِدة، أعقب بما فيه صفة لعاقبة المشركين في معاملتهم للمؤمنين في الدنيا؛ ليعلموا جزاء الفريقين معاً»[٦٩].

إنَّ مجيء المشهد الدنيوي بعد المشهد الأخروي يبعث في النفوس الرهبة، ويوقع في القلوب الخشية، ويجعل المتأمِّل يدرك خطورة ما يفعله المجرمون في الحياة الدنيا، وأنَّ سخريتهم من المؤمنين وإن كانت في ظاهرها قوَّةً وغلبةً غير أنها في الحقيقة ذلٌّ وهوان، حيث يُحجبون عن ربهم يوم القيامة، ويصلون نار الجحيم،

وهو جزاءٌ عادلٌ بالنظر إلى أفعالهم في الدنيا، وسخريتهم بعباد الله المؤمنين الذين كانوا في ظاهر الأمر في ذلٍّ وضعف، وكانوا يتأذَّون من تعامل هؤلاء الفُجَّار وتؤلمهم سخريتهم بهم وضحكهم عليهم، غير أنَّ مَنْ عرف جزاءهم الذي جاء المشهد الأول بتفصيلاته أدرك أنَّ هذا هو الجزاء المستحقُّ لهم، ووعى مدى المفارقة بين حالهم في الدنيا وحالهم في الآخرة، وهو ما يجعل القلوب تخشع لعظمة الله، وتفرح لعدله، وأنه لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملا.

ورأى بعض المفسرين أنَّ المقصود من الانتقال بين المشهدين تسلية المؤمنين والربط على قلوبهم وهو يواجهون هذه الأفعال الدنيئة من الفجار المكذبين، يقول الرازي بعد أن فسَّر آيات المشهد الأول: «اعلم أنه سبحانه لما وصف كرامة الأبرار في الآخرة ذكر بعد ذلك قبح معاملة الكفار معهم في الدنيا في استهزائهم وضحكهم، ثم بيَّن أنَّ ذلك سينقلب على الكفار في الآخرة، والمقصود منه تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم»[٧٠]، وهو غرضٌ لا يتعارض مع غرض التعليل، بل يتَّسق معه ويخدمان معاً السياق والجوَّ العامَّ للسورة الكريمة.

ورأى بعضٌ آخر من المفسرين أنَّ المشهد واحد، وأنه لم يحصل انتقالٌ في الأصل، حيث إنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ من جملة القول الذي يُقال يوم القيامة للفُجَّار المحكيّ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، وإلى ذلك أشار النيسابوري الذي ذكر أنَّ القرآن الكريم في هذه الآية «حكى قبائح أفعال الكافرين، على أنَّ التكلُّم واقعٌ في يوم القيامة؛ بدليل قوله عقيبه: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾»[٧١]، وعلى هذا يكون الاتِّصال متَّسقاً، والمشهد واحدا، فكلُّ ما قيل في آيات المشهد الثاني هي من جملة ما يُقال للفُجَّار من باب تذكيرهم وتوبيخهم بما كانوا يفعلون بالمؤمنين في الحياة الدنيا.

ومن النماذج التي كان التعليل فيها صلةً ورابطاً بين مشهدين في السورة الكريمة ما يلحظه المتدبّر في قوله ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، ثم قال ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ (العلق: ١-٥، ٦).

فقد تحدَّث القرآن الكريم في مطلع هذه السورة عن بيان حكمة الله ﷻ في خلق الإنسان من ضعفٍ إلى قوة، وأشار إلى ما زوَّده الله ﷻ وأمره به من فضيلة القراءة والكتابة لتمييزه على غيره من المخلوقات. ومطلع هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن كما جاء في الصحيحين وعلى قول أغلب المفسرين[٧٢]، فقد نزلت على الرسول ﷺ في مبادئ النبوة، إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه السلام بالرسالة وأمره أن يقرأ، فأنزل الله عليه هذا الآيات.

وافتتاح السورة بكلمة (اقرأ) إيذانٌ بأنَّ رسول الله ﷺ سيكون قارئا، أي تالياً كتاباً بعد أن لم يكن كذلك، وفي هذا الافتتاح براعة استهلالٍ للقرآن، كما أنَّ فيه بدء النبوة وإشعاراً بالرسالة لأنه يقرأ كلام الرب[٧٣]، وقد جمعت هذه الآيات الخمس أصول الصفات الإلهية، فوصفُ (الرب) يتضمَّن الوجود والوحدانية، ووصف (الذي خلق) ووصف (الذي علَّم بالقلم) يقتضيان صفات الأفعال، ووصف (الأكرم) يتضمَّن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص[٧٤].

ثم انتقل السياق القرآني إلى الإخبار عن مدى طغيان الإنسان وتمرُّده على أوامر الله ﷻ وجحوده نعمه عليه، وغفلته عنها رغم كثرتها في حال توافر الثروة والمال والغنى لديه.

وقد يبدو للوهلة الأولى أنَّه لا مناسبة لهذا الانتقال، خاصةً أنَّ الآيات الخمس الأولى من هذه السورة هي أول ما نزل من القرآن الكريم، وأنَّ بقية الآيات نزلت بعدها بفترةٍ اختلفوا في طولها[٧٥]؛ ولذلك ذهب بعض المفسرين إلى

أنَّ قوله تعالى:﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌ لظهور أنه في غرضٍ لا اتصال له بالكلام الذي قبله(٧٦).

والصحيح أنه على الرغم من أنَّ بقية الآيات نزلت بعد الآيات الخمس الأولى بفترةٍ إلا أنَّ هذا لا يعني عدم الاتصال بين الآيات، فقد أمر الرسول ﷺ أن توضع هذه الآيات في هذا الموضع وتُضمَّ إلى آخر الآيات الخمس التي هي أول ما نزل من القرآن؛ لأنَّ تأليف الآيات إنما كان بأمر الله تعالى(٧٧).

وعند التأمُّل في المناسبة بين المقطعين تظهر عظمة المولى ﷻ وحكمته في هذا الترتيب الذي يدلُّ بلا ريبٍ على إعجاز القرآن الكريم وبلاغته، فإنَّ بينهما تناسباً وثيقاً وترابطاً قوياً سوَّغ هذا الانتقال اللطيف على الرغم من الفترة التي فصلت بينهما، واختلاف ظروف نزول كلٍّ منهما.

وذلك أنَّ الله ﷻ لما ذكر في مُقدِّمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة حيث يبعد على العاقل أن لا يطَّلع عليها ولا يقف على حقائقها، أتبعها بما هو السبب الأصلي في الغفلة عنها، وهو حُبُّ الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة والقدرة، فإنه لا سبب لعمى القلب في الحقيقة إلا ذلك(٧٨).

فقد بيَّن الله ﷻ في بداية السورة أنه خلق الإنسان من علق، ثم بيَّن أنه رفعه من أخسِّ المراتب إلى أعزِّ مفاخر الموجودات، وهو التحلِّي بفضيلة العلم والعرفان، ثم أشار بقوله (كلا) إلى أنَّه لم يشكر تلك النعمة الجليلة، بل كفر وطغى إذ أغناه ربه وزاده جاهاً ومالا، فردعه عنه وقبح حاله، ثم بيَّن سبب كفرانه وطغيانه فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾، ثم أكَّد الزجر والردع فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾، على الالتفات؛ للمبالغة في التحذير والتهديد من عاقبة الطغيان(٧٩).

ثم أتبع ذلك كلَّه بذكر نموذجٍ لهذا الإنسان الطاغي وهو أبو جهل[٨٠] الذي كان ينهى النبي ﷺ عن الصلاة انتصاراً للأوثان والأصنام، وجاء الوعيد بأشدِّ العقاب إن هو استمرَّ على ضلاله وطغيانه.

ولهذا ذكر المفسرون أنَّ (كلا) هنا ردعٌ لمن كفر من جنس الإنسان بنعمة الله تعالى عليه لطغيانه؛ لأنَّ مُفتتح السورة إلى هذا المقطع يدلُّ على عظيم منته ﷻ على الإنسان، فإذا قيل: (كلا) كان ردعاً للإنسان الذي قابل تلك النعم بالكفران والطغيان[٨١].

وقد ذكر المفسرون ههنا نكتةً لطيفة، وهي أنَّ أول السورة دلَّ على فضيلة العلم، وبعدها دلَّ على مذمَّة المال، فكفى ذلك مُرغِّباً في العلم ومُنفِّراً عن الدنيا[٨٢].

لقد أفصحت هذه النماذج وغيرها عن أنَّ الانتقال بين مشاهد السورة الكريمة ليس اعتباطا، وأنَّ التخلُّص من مشهدٍ له موضوعٌ خاصٌّ إلى مشهدٍ آخر تحمل آياته موضوعاً آخر ليس عبثا، إنما لا بُدَّ أن يكون بين المشهدين صِلةٌ وثيقةٌ وعلاقةٌ وطيدة، وقد أبانت نماذج هذا المبحث عن نوعٍ من أنواع هذه العلاقة، وهي علاقة التدليل والتعليل، إذ إنَّ القرآن الكريم في معظم سور هذا الجزء يعمد إلى تقرير حقيقة من حقائق الإيمان الرئيسة، أو تأكيد مبدأ من مبادئ الدعوة الإسلامية، ثم يعقبه بمشهدٍ ثانٍ يكون بمثابة الدليل عليه أو التعليل له.

ولا غرو أن تكثر النماذج التي تؤكِّد وجود نوع هذه الصلة، فالمخاطبون في تلك الفترة هم من المشركين الجاحدين، ومن البلاغة والبيان مراعاة حالهم؛ لذا كان القرآن يُدلِّل ويُعلِّل في المشهد الثاني ما يرد من حقائق في المشهد الأول؛

رغبةً في إثبات الحقائق الإيمانية التي جاء بها هذا الدين العظيم، وتأكيداً لها في نفوسهم المنكرة المعاندة التي تحتاج كلَّ دليلٍ وبرهانٍ لعلَّها ترتدع عن غيها، وترجع إلى ربها، وتؤمن به وبرسوله الكريم ﷺ.

– التسلية والتبشير:

نزلت معظم سور جزء عمَّ في مكة في بدايات الدعوة الإسلامية، وفي فترةٍ كان المشركون هم مَنْ يملك زمام القوَّة والغلبة؛ نظراً إلى أعدادهم ومكانتهم في المجتمع المكي؛ لذا كان من الطبعي حين لم يقبلوا بهذا الدين وأبوا اتِّباع الرسول الذي جاء به أن يحاربوه بكلِّ ما أُوتوا من قوَّة، حيث إنَّ مبادئه وأصوله تتعارض كليًّاً مع ما كان عليه أولئك القوم من عبادةٍ للأصنام، وإنكارٍ للبعث، وغيرها من أمور الجاهلية الشركية التي كان عليها آباؤهم وأجدادهم، ولذا كان هذا الموقف الرافض مُتوقَّعاً من نفوسٍ خيَّمتْ عليها ظلمات الجهل، وقلوبٍ غابتْ في غياهب الشرك والكفر، والاقتداء بالآباء الأولين والاهتداء بآثارهم.

لقد كانت هذه الفترة من أصعب الفترات التي مرَّت بالمؤمنين، حيث عاشوا في امتحانٍ صعب، وكانوا يلقون الأذى، ويواجهون السخرية، ويُقابَلون بالضحك والاستهزاء، وكان أكثر مَنْ يواجه ذلك قائد هذه الدعوة ورسولها الكريم ﷺ، ومَنْ يقرأ في السيرة النبوية عن تلك الفترة فسيدرك حجم الأذى الذي كان يلقاه الرسول ﷺ والمؤمنون في بدايات الدعوة الإسلامية، وقد أشار القرآن الكريم إلى أنواعٍ من هذا الأذى في سورٍ كثيرةٍ من القرآن، خاصَّةً في السور المكية التي نزلت في هذا الفترة العصيبة، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (المطففين: ٢٩).

وقد كان الرسول ﷺ والذين آمنوا معه في حاجةٍ شديدةٍ إلى التثبيت من المولى الكريم ﷻ، حتى يمكنهم الاستمرار في هذه الدعوة المباركة، والثبات عليها، وتحمُّل الأذى في سبيلها، حتى تتجاوز هذه الفترة العصيبة التي يعانون فيها من الضعف والقلة، ولم يكن القرآن الكريم ليغفل عن أداء هذه المهمة، بل كان حريصاً على الوفاء بها، ومن الطبعيّ أن تكون سور جزء عمَّ من أكثر السور التي اتَّخذها القرآن ميداناً لبعث روح الأمل والتفاؤل في نفوسهم، وتحفيز المؤمنين وتشجيعهم على الثبات والتحمُّل، بوصفها سوراً نزلت في تلك الفترة القاسية العصيبة؛ ولذا كان من أبرز الأغراض التي سعى القرآن الكريم إلى تأديتها في آيات هذه السور تسلية الرسول ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين، وتبشيرهم بالنصر والتمكين، وهي معانٍ وأغراضٌ كان المؤمنون في تلك الفترة في أشدِّ الحاجة إليها.

ومن النماذج التي تفصح عن اهتمام القرآن بمثل هذه الأغراض ما يلحظه المتأمِّل في الانتقال بين أول مشهدين من سورة النازعات، يقول المولى ﷻ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾، ثم قال ﷻ بعد ذلك: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ (النازعات: ١-١٤، ١٥).

ففي المشهد الأول من هذه السورة الكريمة يقسم الله ﷻ بالملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد(٨٣) على إثبات البعث وتحقُّق وقوعه، وقد حكى في أثناء ذلك موقف المشركين منه، وإصرارهم على إنكاره والاستهزاء به في قول الله حكاية لمقولتهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

ثم انتقل القرآن الكريم إلى حكاية قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية، وما كان من دعوة موسى عليه السلام له إلى الإيمان بالله ﷻ، وحثِّه على التزكية والهداية والخشية، وقد أراه من الدلائل ما يؤيِّد صدقه، وما أجابه فرعون من تكذيبٍ وعصيانٍ وادعاءٍ للربوبية حتى أهلكه الله ﷻ وجعله عِبرةً للمعتبرين،

وقد صُدِّر هذا المشهد باستفهام يخاطب به الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ إن كانت هذه القصة قد بلغته، وهو استفهامٌ يُقصد منه التشويق لما سيُذكر فيما بعد في جوابه، مع ما في ذلك من إشارةٍ إلى أهمية هذا الخبر وأنه مما ينبغي الاعتناء به والإصغاء إليه.

وهذا الانتقال اللطيف من مشهد الحديث عن إنكار المشركين للبعث واستهزائهم به إلى مشهد قصة موسى عليه السلام مع فرعون يحتوي على أسرارٍ بلاغيةٍ تُبيّن مدى الملاءمة بين المشهدين، وتوضِّح قوَّة المناسبة التي سوَّغت هذا الانتقال البديع، مما يفصح عن ملمحٍ من ملامح الإعجاز البلاغي والبياني في القرآن الكريم.

يقول الرازي ساعياً إلى استكناه وجوه هذه الملاءمة: «اعلم أنَّ وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ما قبلها من وجهين؛ الأول: أنه تعالى حكى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث حتى انتهوا في ذلك الإنكار إلى حدِّ الاستهزاء... وكان ذلك يشقُّ على محمدٍ ﷺ، فذكر قصة موسى عليه السلام، وبيَّن أنه تحمَّل المشقَّة الكثيرة في دعوة فرعون ليكون ذلك كالتسلية للرسول ﷺ، الثاني: أنَّ فرعون كان أقوى من كفَّار قريشٍ وأكثرَ جمعاً وأشدَّ شوكة، فلما تمرَّد على موسى عليه السلام أخذه الله نكال الآخرة والأولى، فكذلك المشركون في تمرُّدهم عليك إن أصرُّوا أخذهم الله وجعلهم نكالا»(٨٤)، وواضحٌ أنَّ الرازي يكشف من خلال هذين الوجهين عن أنَّ التسلية والتبشير هما الغرض الأساس من مجيء قصة موسى عليه السلام بعد المشهد الذي حكى فيه القرآن الكريم المنكرين للبعث، حيث كان في هذه القصة تسليةٌ للرسول ﷺ حينما استهزأ المشركون به وسخروا من البعث، كما أنَّ فيها موعظةً للمشركين وتهديداً لهم بأن يصيبهم مثل ما أصاب من هو أقوى منهم في العدد والعُدَّة.

كما أنَّ في إيراد هذه القصة بعد الحديث عن إثبات البعث وموقف المشركين منه تبشيراً له ﷺ بهلاك مَنْ يُكذِّبه، ونجاته هو ومَنْ معه مِن المؤمنين مِن أذاهم(٨٥).

«وفي القصَّة كلِّها تعريضٌ بسادة قريشٍ من أهل الكفر مثل أبي جهل بتنظيرهم بفرعون، وتنظير الدهماء بالقوم الذين حشرهم فرعون ونادى فيهم بالكفر، وقد علم المسلمون مضرب هذا المثل، فكان أبو جهل يُوصف عند المسلمين بفرعون هذه الأمة»(٨٦).

لقد كانت آيات المشهد الأول تتناول أولئك الذين أنكروا البعث، وسخروا منه، واستبعدوا وقوعه بعد أن أثبت المولى الكريم ﷻ بعض مشاهد الانقلاب الكوني الذي يسبقه، فالأرض تهتزُّ وترجف بسبب الصيحة، ثم ترجف وتهتزُّ مرَّةً أخرى بسبب الصيحة الثانية، وحينها تضطرب قلوب المشركين خوفاً وفزعا؛ لأنهم يعلمون وقتها أنَّ ما كان يعدهم الرسول ﷺ حقٌّ وصدق، غير أنَّ هذا العلم لن يفيدهم شيئا؛ لأنهم كانوا في الدنيا يسخرون بهذه الوعود، ويتعجَّبون مستهزئين من قيامهم للبعث بعد أن أمسوا عظاماً نخرة.

إن مَنْ يتأمَّل موقف المشركين ويصغي إلى حكاية القرآن الكريم عنهم يدرك حجم الإنكار الذي وصلوا إليه، ويعي تماماً أنَّ الأمل في إيمانهم يكاد يكون معدوما؛ ولذا فلم يكن عجيباً أن يداخل اليأس قلب النبي ﷺ من إيمانهم، وهذا يعني أنهم سيكونون عقبةً في طريق الدعوة الإسلامية، وسيستمرُّون في محاربتها والوقوف أمامها، وهم آنذاك أصحاب القوَّة والمنعة؛ ولذا خشي ﷺ من عجزه عن القيام بالمهمَّة التي كلفه المولى الكريم بها، وشقَّ عليه هذا الأمر لحرصه ﷺ وشفقته بأمته، وهنا تأتي الحاجة الماسَّة إلى المشهد الثاني الذي «يخبر فيه المولى ﷻ رسوله ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون،

وأيَّده بالمعجزات، ومع هذا استمرَّ على كفره وطغيانه، حتى أخذه الله أخذ عزيزٍ مقتدر، وكذلك عاقبة مَنْ خالفك وكذَّب بما جئتَ به؛ ولهذا قال في آخر القصَّة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾»[٨٧].

يقول أبو حيان مفصحاً عن هذه المناسبة ومؤكِّداً ما ذُكر سابقاً: «ولما أنكروا البعث وتمرَّدوا، شقَّ ذلك على رسول الله ﷺ، فقصَّ تعالى عليه قصة موسى عليه السلام، وتمرُّد فرعون على الله عز وجل حتى ادَّعى الربوبية، وما آل إليه حال موسى من النجاة، وحال فرعون من الهلاك، فكان ذلك مسلاةً لرسول الله ﷺ وتبشيراً بهلاك مَنْ يُكذِّبه، ونجاته هو من أذاهم»[٨٨]، وأوجز الشوكاني فقال عن آيات المشهد الثاني أنها «مستأنفةٌ مسوقةٌ لتسلية رسول الله ﷺ عن تكذيب قومه، وأنه يصيبهم مثل ما أصاب مَنْ كان قبلهم مِمَّن هو أقوى منهم»[٨٩].

وإضافةً إلى غرض التسلية والتبشير فقد ذكر المفسِّرون أغراضاً أخرى لهذا الانتقال اللطيف تتعاضد مع الغرض الرئيس، فبعضهم يرى أنَّ المقصود به وعظ المشركين المنكرين للبعث وتهديدهم بما أصاب فرعون في النكال في الدنيا، خاصَّةً أنه أعظم منهم قوَّةً وعددا[٩٠]، وبعضهم يرى أنَّ اختيار القرآن لقصة موسى عليه السلام لأنه أبهر الأنبياء المتقدِّمين معجزة[٩١]، أمَّا البقاعي فقد رأى أنَّ اختيار هذه القصة تحديداً بعد مشهد المنكرين للبعث يعود إلى أنها «أشبه شيءٍ بالقيامة؛ لما حصل فيها من التقلُّبات والتغيُّرات وإيجاد المعدومات من الجراد والقُمَّل والضفادع على تلك الهيئات الخارجة عن العادات في أسرع وقت، وقهر الجبابرة والمنِّ على الضعفاء... مستفهماً عن الإتيان للتنبيه والحثِّ على جمع النفس على التأمُّل والتدبُّر والاعتبار، مُقرِّراً ومُسلِّياً له ﷺ، ومُهدِّداً للمكذبين أن يكون حالهم -وهم أضعف أهل الأرض لأنه لا ملك لهم- كحال فرعون في هذا، قد كان أقوى أهل الأرض بما كان له من الملك وكثرة الجنود.. فيكون كافياً

لك في التسلية ولقومك في الحثِّ على التصديق، والتنبيه على الاعتبار، والتهديد على التكذيب والإصرار»[٩٢].

ومما ينبغي أن يُشار إليه هنا أنَّ قصة موسى عليه السلام هي أكثر القصص وروداً في القرآن، فقد وردت في سورٍ كثيرةٍ بمشاهد متنوعةٍ وأساليب شتَّى، كلٌّ منها تناسب سياق السورة التي وردت فيها، وتشارك في أداء الغرض البارز في السياق، وهنا ترد القصة مختصرةً سريعة المشاهد منذ أن نُودي موسى بالوادي المقدَّس إلى أخذ فرعون في الدنيا والآخرة، فتلتقي بموضوع السورة الأصيل، وهو حقيقة الآخرة، وهذا المدى الطويل من القصة يَرِدُ هنا في آياتٍ معدوداتٍ قصارٍ سريعة؛ ليناسب طبيعة السورة وإيقاعها.

ومن النماذج التي يجد فيها المتأمِّل التسلية والتبشير غرضاً من أغراض الانتقال بين مشهدين في السورة الكريمة ما جاء في قوله عز وجل: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ثم يقول الحقُّ عز وجل بعد آيات المطلع الخمس: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾ (الأعلى: ١-٥، ٦).

فقد اشتملت سورة الأعلى على تسبيح الله عز وجل وتنزيهه وبيان قدرته على خلق الإنسان وخلق ما في الأرض مِمَّا فيه بقاؤه، وعلى وعد الرسول ﷺ بحفظ القرآن وعدم نسيانه، ووعده بالتوفيق إلى الطريقة السهلة الميسَّرة في الدعوة، وتكليفه أن يُذكِّر الناس، وخُتمت السورة ببيان فلاح مَنْ طهَّر نفسه من الذنوب والآثام، وزكَّاها بصالح الأعمال[٩٣].

وقد كانت آيات المشهد الأول من السورة تتوجَّه بالخطاب إلى النبي ﷺ آمرةً له بأن يُسبِّح ربه ويُقدِّسه، مفصحةً في سياق ذلك عن بعض أوصاف الرب عز وجل، بما يستحقُّ معه العبادة والتسبيح باسمه، ثم انتقل السياق إلى مشهدٍ جديدٍ

يخاطب المولى ﷻ نبيه الكريم ﷺ بأنه سيُقرؤه الذكر الحكيم فلا ينساه، وهنا يبرز السؤال: ما علاقة المشهد الأول بالثاني؟ ولماذا انتقل السياق من أوصاف الرب ﷻ إلى وعد النبي ﷺ بعدم النسيان؟ وما الجماليَّات التي أراد القرآن الكريم إبرازها من خلال هذا الانتقال؟

إنَّ المتأمِّل في هذا الانتقال سيدرك حجم الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم وروعة تعبيره البياني، وسيوقن أنَّ انتقالاته من مشهدٍ إلى مشهدٍ لا تأتي اعتباطاً دون تحقيق أغراضٍ بلاغيةٍ وأداء أسرارٍ بيانيةٍ تدلُّ على أنَّ هذا الكلام المعجز يتجاوز المستوى البشري، ولا يليق إلا أن يكون كلام الحقِّ تبارك وتعالى.

وبيان ذلك أنَّ الله ﷻ لما أمر رسوله الكريم ﷺ بالتسبيح والتنزيه في المشهد الأول من هذه السورة تبيَّن أنه لا يمكن القيام بهذا الأمر إلا بتلاوة القرآن الكريم وحفظه وعدم نسيانه، ولحرصه ﷺ على اتِّباع أوامر ربه ﷻ فقد خشي أن ينسى ما أُوحي إليه من ربِّه، وحينها لن يتمكَّن من تسبيحه وتقديسه، وهو ما كان يشغله ﷺ ويقلق نفسه الكريمة، فجاء المشهد الثاني ليزفَّ البشرى إليه ﷺ، ويبعث في روحه الطمأنينة، وفي قلبه السكينة، من خلال وعدٍ قاطعٍ منه ﷻ بأنه سيتكفَّل بإقرائه، ويضمن له عدم النسيان، وهو ما كان يحتاجه النبي الكريم ﷺ في ذلك الموقف العصيب.

وقد تنبَّه إلى ضرورة بيان هذه المناسبة بعض المفسِّرين، يقول أبو حيان: «ومناسبة (سنقرئك) لما قبله: أنه لما أمره تعالى بالتسبيح، وكان التسبيح لا يتمُّ إلا بقراءة ما أُنزل عليه من القرآن، وكان يتذكَّر في نفسه مخافة أن ينسى، فأزال عنه ذلك، وبشَّره بأنه تعالى يقرئه وأنه لا ينسى»[٩٤]، وأوضح الرازي هذه المناسبة فقال بعد أن فسَّر آيات المشهد الأول: «اعلم أنه تعالى لما أمر محمداً

بالتسبيح فقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وعلَّم محمداً ﷺ أنَّ ذلك التسبيح لا يتمُّ ولا يكمل إلا بقراءة ما أنزله الله تعالى عليه من القرآن؛ لما بيَّنَّا أنَّ التسبيح الذي يليق به هو الذي يرتضيه لنفسه، فلا جرم كان يتذكَّر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى، فأزال الله تعالى ذلك الخوف عن قلبه بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾»[٩٥].

وقد ورد في السنة النبوية أنَّ الرسول ﷺ كان يخشى من نسيان ما يوحيه الله ﷻ، فقد «أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من الوحي حتى يزَّمل من ثقل الوحي حتى يتكلَّم النبي ﷺ بأوله مخافة أن يغشى قلبه فينسى، فقال له جبريل: لم تفعل ذلك؟ قال مخافة أن أنسى. فأنزل الله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾»[٩٦]، وهو مما يؤكِّد هذه المناسبة، وأنَّ الغرض الذي جاء من أجله المشهد الثاني هو تسلية النبي ﷺ وتبشيره بهذا الوعد الكريم، وأنَّ الله ﷻ حين أمره بالتسبيح كان عالماً بحاله، فجاءت هذه البشارة لتوقع في قلبه ﷺ الطمأنينة والسكون، وتذهب عنه الخشية والفزع.

وأشار بعض المفسِّرين إلى علاقةٍ أخرى بين المشهدين لا تتعارض مع علاقة التسلية والتبشير، وهي ذكر الخاصِّ بعد العام، فبعد أن ذكر المولى الكريم ﷻ في المشهد الأول هدايته العامَّة للخلق في قوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ ذكر في المشهد الثاني هدايته الخاصَّة لخير الخلق ﷺ؛ حيث وعده بإقرائه القرآن، وحفظه له، وعدم نسيانه.

فأبو السعود يذكر أنَّ المشهد الثاني: «بيانٌ لهداية الله تعالَى الخاصَّةِ برسولِ الله ﷺ إثرَ بيانِ هدايتِه تعالى العامَّةِ لكافَّةِ مخلوقاتِه، وهي هدايتُه عليه الصلاةُ والسلامُ لتلقِّي الوَحْي وحفظِ القرآنِ الذي هو هُدى للعالمينَ، وتوفيقُه عليهِ

الصَّلاةُ والسَّلامُ لهدايةِ الناسِ أجمعينَ»[٩٧]، والشوكاني يؤكد أنَّ جملة (سنقرئك) «مستأنفةٌ لبيان هدايته الخاصَّة به بعد بيان الهداية العامَّة، وهي هدايته ﷺ لحفظ القرآن»[٩٨].

وابتداء هذا المشهد بقوله: (سنقرئك) تمهيدٌ للمقصود الذي هو: (فلا تنسى)، وإدماجٌ للإعلام بأنَّ القرآن في تزايدٍ مستمر، فإذا كان قد خاف من نسيان بعض ما أُوحي إليه على حين قِلَّته فإنه سيتتابع ويتكاثر فلا يخشى نسيانه، فقد تكفَّل له عدم نسيانه مع تزايده، والالتفات بضمير المتكلم المعظَّم لأنَّ التكلُّم أنسب بالإقبال على المبشَّر[٩٩].

ومعنى الكلام: فلا تنسى، إلا ما شاء الله أن تنساه، ولا تذكُرَه، قالوا: ذلك هو ما نسخه الله من القرآن، فرفع حكمه وتلاوته. وقال آخرون: معنى النسيان في هذا الموضع: الترك؛ وقالوا: معنى الكلام: سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشيءٍ منه، إلا ما شاء الله أن تترك العمل به مما ننسخه[١٠٠].

ومن النماذج التي يشعر فيها المتلقِّي بالتسلية والتبشير بوصفهما غرضاً من أغراض الانتقال والتخلُّص من مشهدٍ إلى آخر في سور جزء عمَّ ما جاء في قوله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ إلى أن قال ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ (الغاشية: ٢-٧، ٨).

تناولت سورة الغاشية موضوعين رئيسين؛ الأول: القيامة وأحوالها وأهوالها وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء، وما يلقاه المؤمن من السعادة والهناء، والثاني: الأدلَّة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين وقدرته الباهرة، وخُتمت السورة الكريمة بالتذكير برجوع الناس جميعاً إلى الله ﷻ للحساب والجزاء[١٠١].

وقد أُفتتحت هذه السورة بخطاب النبي ﷺ وسؤاله عن بلوغه خبر يوم القيامة الذي يغشى الناس بشدائده ويكتنفهم بأهواله، والافتتاح بالاستفهام عن بلوغ خبر الغاشية مُستعمَلٌ في التشويق إلى معرفة هذا الخبر لما يترتَّب عليه من الموعظة، وهو استفهامٌ أُريد به التعجيب بما في حيِّزه، والتشويق إلى استماعه.

وفي المشهد الأول الذي صُدِّرت به السورة يخبر الله ﷻ عن أصحاب هذه الوجوه الشقيَّة بجملةٍ من الأخبار المحزنة المؤلمة، منها ما يتعلَّق بهيئاتهم، ومنها ما يتعلَّق بأحوالهم، ومنها ما يتعلَّق بشرابهم، ومنها ما يتعلَّق بطعامهم، والابتداء بـ(وجوه) مع أنها نكرة لأنها وقعت في موقع التنويع والتفصيل[١٠٢]، والتعبير بها عن أصحابها على سبيل الكناية[١٠٣] أو المجاز العقلي[١٠٤] أو المجاز المرسل[١٠٥]، والأخير هو الراجح من وجهة نظري، «ووجه حُسن هذا المجاز أنَّ الخشوع والانكسار والذلَّ وأضدادها تتبيَّن أكثرها في الوجه»[١٠٦].

وبعد أن بيَّن الله ﷻ وعيد الكفار الأشقياء، وأبان عن حالهم ومكانهم، وطعامهم وشرابهم، انتقل السياق القرآني إلى وصف مشهد أحوال الفريق المقابل، وهم المؤمنون السعداء أصحاب الوجوه الناعمة، مفصحاً عمَّا وعدهم به، وواصفاً ثوابهم لترغيب الناس بأعمالهم، وتشويقهم لما يلاقونه من فضل ربهم، وهنا يحقُّ للمتلقِّي أن يتساءل عن مناسبة هذا المشهد لما قبله، ولماذا انتقل السياق من وصف عذابات أصحاب الوجوه الخاشعة إلى ذكر نعيم أصحاب الوجوه الناعمة؟ وما الصلة التي يمكن ملاحظتها بين المشهدين؟

إنَّ المتأمِّل في آيات المشهد الأول وفي ألفاظها ودلالاتها يشعر برهبةٍ عظيمة، وقشعريرةٍ مخيفةٍ تلامس شغاف القلب، حيث يصغي المتلقِّي خلالها إلى صور العذاب التي سينالها المشركون، وذلك حين وصف القرآن الكريم وجوههم بثلاث صفات؛ الأولى: أنها (خاشعة) أي ذليلة، «ولم توصف بالذلِّ ابتداءً لما في وصفها

بالخشوع من الإشارة إلى التهكُّم، وأنها لم تخشع في وقتٍ ينفع فيه الخشوع»[١٠٧]، والثانية: أنها (عاملة)، والثالثة: أنها (ناصبة)، والمعنى أنها دائبةٌ في العمل فيما يُتعبها ويُشقيها في النار بسبب جرِّ السلاسل والأغلال والصعود والهبوط في تلالها ودركاتها[١٠٨]، وفي هذه الأوصاف الثلاث تعريضٌ بأهل الشقاء بتذكيرهم بأنهم تركوا الخشوع لله والعمل بما أمر به والنَصَب في طاعته[١٠٩].

ثم شرع الذكر الحكيم في بيان مآل هذا الفريق ومشربهم ومطعمهم؛ أما مآلهم فهو نارٌ شديدة الحر، ووصْفها بالحامية رغم أنه أقلُّ أحوالها دلالةٌ على شدَّة الحمي، أو أنها حاميةٌ حِمى غيظٍ وغضبٍ مبالغةً في شدَّة الانتقام[١١٠]، أمَّا مشربهم فهو من عينٍ متناهيةٍ في الحرارة، وأمَّا مطعمهم فهو الضريع، وقد اختلف المفسرون في ماهيَّته، «ولله درُّ من قال: الضريع طعام أهل النار؛ فإنه أعمُّ وأسلم من عُهدة التعيين»[١١١]، ثم وصف الله ﷻ هذا الطعام بقوله: (لا يُسمن ولا يُغني من جوع)، فقد نفى عنه منفعتي الغذاء، وهما إماطة الجوع وإفادة القوة والسِمَن في البدن، أو يكون المعنى: ليس لهم طعامٌ أصلا[١١٢].

وحين تخشع القلوب وترهب النفوس، وربما يداخلها يأسٌ من رحمة الله لشدَّة ما تسمع من تصويرٍ دقيقٍ لهذا العذاب الرهيب يأتي المشهد الثاني ليصوِّر جزاء الفريق المقابل، وليكشف عن حجم النعيم الذي يعيشون فيه، وهو ما يبعث في النفوس الأمل والتفاؤل، ويحقِّق لها التسلية والتبشير، وهو ما كانت تحتاجه بعد أن كانت تصغي لمشهد العذاب القاسي. وتقديم مشهد وصف الأشقياء أصحاب الوجوه الخاشعة أقرب إلى جوِّ الغاشية وظلِّها، وأدخل في تهويل حديثها وتفخيمه؛ لأنَّ مبنى السورة على التخويف كما يُنبئ عنه لفظ (الغاشية)، فالمقام لإنذار المؤثرين الحياة الدنيا[١١٣]، ولأنَّ حكاية حُسن حال أهل الجنة بعد حكاية سوء حال أهل النار مما يزيد المحكيَّ حُسناً وبهجة[١١٤].

وقد تنبَّه بعض المفسِّرين إلى سبب الاستغناء عن العطف بالواو بين المشهدين بحكم اشتراكهما في حكم البيان لحديث الغاشية، فأوضح أنَّ السبب التنبيه على أنَّ المقصود من الاستفهام في مطلع السورة الإعلام بحال المعرَّض بتهديدهم، وهم أصحاب الوجوه الخاشعة، فلما حصل ذلك الإعلام بمشهد العذاب تمَّ المقصود، فجاءت الجملة بعدها مفصولة؛ لأنها جعلت استئنافاً بيانياً جواباً عن سؤالٍ مُقدَّرٍ تثيره الجملة السابقة، فيتساءل السامع: هل من حديث الغاشية ما هو مغايرٌ لهذا الهول؟ أي ما هو أنسٌ ونعيمٌ لقومٍ آخرين؛ ولهذا النظم صارت هذه الجملة بمنزلة الاستطراد والتتميم؛ لإظهار الفرق بين حالي الفريقين، ولتعقيب النذارة بالبشارة، فموقع هذه الجملة المستأنفة موقع الاعتراض، ولا تنافي بين الاستئناف والاعتراض وذلك موجب لفصلها عما قبلها، وفيه جري القرآن على سننه من تعقيب الترهيب والترغيب(١١٥).

لقد صوَّرت هذه الآيات مشهدين من مشاهد القيامة، وهذان المشهدان متقابلان تقابل تضاد؛ إذ المشهد الأول يصوِّر العذاب الأخرويَّ لأهل الشقاء، فترى هناك وجوهاً خاشعةً ذليلةً مُتعبةً مُرهقة، عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترضَ العاقبة، ولم تجد إلا الوبال والخسار، فزادت مضضاً وإرهاقاً وتعبا، وهي تُسقى من عينٍ آنيةٍ حارَّةٍ بالغة الحرارة، وتتغذَّى من طعامٍ لا نفع فيه ولا غناء.

أمَّا المشهد الثاني فعلى النقيض تماماً من المشهد الأول، ففيه وجوهٌ ناعمةٌ يبدو عليها النعيم، ويفيض منها الرضا، وجوهٌ تنعم بما تجد، وتُحمد بما عملت، فوجدت عُقباه خيراً وودَّاً ورضى، فهي تنعم بالعين الجارية، والسرر المرفوعة، والنمارق المصفوفة، والزرابيّ المبثوثة(١١٦).

وقد اعتمد القرآن الكريم في عرض هاتين الصورتين على طريقة المقابلة التامَّة بين جميع الأجزاء فيهما، وهذا التقابل الكامل في جزئيات المشهد لونٌ من ألوان

التناسق في العرض، فقد قوبلت (خاشعة) بـ(ناعمة)، و(عاملة ناصبة) بـ(لسعيها راضية)، و(تصلى ناراً حامية) بـ(في جنةٍ عالية)، و(تُسقى من عينٍ آنية) بـ(فيها عينٌ جارية)، وقوبل شقاء عيش أهل النار الذي أفاده قوله: (ليس لهم طعامٌ إلا من ضريع، لا يُسمن ولا يُغني من جوع) بمقاعد أهل الجنة المشعِرة بترف العيش من شرابٍ ومتاع(١١٧).

«إنَّ هذه البنية التي تقوم على علاقات التنافر والتضادِّ والتواصل فيما بين عناصرها تكشف عن أسلوبٍ متميّزٍ في تفجير المعنى من خلال حركة النسق اللغوي في الصياغة القرآنية... إذ إنَّ مدار العلاقات بين عناصر التحليل يمكن أن ينطلق من بنية التضادِّ القائمة بين عنصري النار والجنَّة؛ لأنهما يُشكِّلان نقطة المفارقة بين قسمي التركيب، فكلُّ عنصرٍ منهما يحدِّد حقيقة الوجوه التي ترتبط بها»(١١٨).

فهذه الطريقة في العرض من شأنها أن تبرز الحقائق الغيبية عن اليوم الآخر التي يصعب إدراكها إلا باستخدام الوسائل المناسبة في الإقناع والإمتاع، فبها تكتمل جميع المشاهد، وتجتمع كلُّ المعلومات الضرورية والكافية لإقامة المفاضلة، وحُسن الفهم، وسلامة الاختيار(١١٩).

لقد أفصحت هذه النماذج عن أنَّ القرآن يسعى في بعض المواضع إلى تحقيق غرض التسلية والتبشير حين ينتقل من مشهدٍ إلى مشهد، ولا غرو أن يكون الاهتمام بهذا الغرض لافتاً في سور جزء عمَّ؛ لأنَّ الفترة المكية المبكرة التي نزلت فيها كانت صعبةً على المؤمنين لما لاقوه فيها من ضعفٍ وذل، ولما عانوه من قلَّةٍ وفقر، فجاءت الآيات لتربط على قلوبهم، وتسلِّيهم بذكر مؤمني الأمم السابقة وما لاقوه من أقوامهم، وكيف كانت نتيجة كلٍّ من الفريقين، كما جاءت لتكشف لهم عن النعيم المقيم الذي ينتظرهم، خاصَّةً بعد مشاهد العذاب

الأليم الذي ينتظر أعداءهم الذين كانوا يسخرون منهم، ويصدُّونهم عن سبيل الله واتباع رسوله ﷺ.

– ذكر النموذج:

يهتمُّ القرآن الكريم بالإقناع والتأثير، ويحشد لذلك كلَّ وسيلةٍ تسهم في تحقيق هذا الهدف، ومن أبرز الوسائل التي يلحظها المتأمِّل في سور جزء عمَّ ذكر النموذج، وهو ما يمثِّل علاقةً وثيقةً بين مشهدين في السورة، حيث تتحدَّث آيات المشهد الأول عن موضوعٍ معيَّن، أو تُقرِّر حقيقةً مُحدَّدة، ثم تأتي آيات المشهد الثاني لتذكر نموذجاً أو مجموعةً من النماذج المتَّصلة بهذا الموضوع أو تلك الحقيقة، ويكون الهدف من ذلك التأكيد والتثبيت، أو إظهار عظمة المولى ﷻ وقدرته، أو التدليل على صدق ما تحدَّثت به آيات المشهد الأول، أو غير ذلك من الأغراض التي يريد القرآن الكريم تحقيقها من خلال ذكر هذه النماذج، وهو ما يسهم في تكوين صلةٍ واضحةٍ في ذهن المتلقِّي بين المشهدين في السورة الكريمة، ويكون الانتقال من الأول إلى الثاني فيها حاملاً لكثيرٍ من أسباب اللطافة والجمال.

ومن المواضع التي حرص فيها القرآن الكريم على ذكر نموذجٍ في المشهد الثاني لما يُقرِّره في المشهد الأول من حقائق وموضوعات ما جاء في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، ثم قوله ﷻ بعد ذلك: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ (البروج: ١٢، ١٣، ١٧، ١٨).

فقد قرَّر القرآن حقيقةً من الحقائق التي طالما كان يؤكِّد عليها في سوره الكريمة، خاصَّةً حين تكون مكيَّةً مبكِّرة النزول، وهي حقيقة شِدَّة عذاب الله وعظيم انتقامه، وذلك أنَّ الخطاب في معظم تلك السور كان مُوجَّهاً إلى المشركين

الذين كفروا بالله وبرسوله، وأنكروا حقائق الإيمان وأصول الدعوة، وسخروا من المؤمنين الذي سارعوا في اتِّباع أوامر الله ﷻ ورسوله ﷺ، غير أنَّه في الوقت نفسه غفورٌ للمؤمنين يتودَّد إليهم ويُرغِّبهم في طاعته لنيل نعيمه ورضوانه، وهو في كلِّ الأحوال لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وفي هذا المشهد وعيدٌ وتهديدٌ لأصحاب الأخدود، وتبشيرٌ للمؤمنين الذين عُذِّبوا على أيديهم.

ثم ينتقل السياق القرآني إلى خطاب النبي ﷺ مفتتحاً هذا المشهد باستفهامٍ غرضه التشويق لمعرفة الجواب، وذلك من خلال سؤاله عن حديث الجنود إن كان قد أتاه أو سمع به، وقد كشفتْ عنهم الآية التالية التي أخبر فيها القرآن الكريم أنه يقصد بهم قوم فرعون وثمود، دون أن يُفصِّل في خبر هؤلاء الأقوام وما حلَّ بهم من عذاب.

واللافت هنا هو انتقال القرآن الكريم من مشهد الحديث عن غضب الله، وشدَّة انتقامه، واتساع مغفرته، وعظيم قدرته، إلى الحديث عن هذين القومين، وسؤال النبي ﷺ عنهم وعن خبرهم وحديثهم إن كان قد بلغه، وهو انتقالٌ يفتح سؤالاً مفاده: ما العلاقة بين المشهدين؟ وما الذي استدعى حديث الجنود؟ وما السرُّ البيانيُّ الذي أراد القرآن الكريم إبرازه من خلال هذا الانتقال اللطيف؟

وعند التأمُّل في الصلة بين المشهدين وملاحظة العلاقات والوشائج بينهما يتَّضح ملمحٌ من ملامح إعجاز القرآن البلاغي، وإبداعه في التصرُّف في أفانين القول والكلام، وكيف أنه ينتقَّل بين مشاهده ببراعةٍ وجمالٍ دون أن يشعر المتلقِّي بتنافرٍ بينها، أو يحسَّ بأنَّ المشهد الثاني خارجٌ عن موضوع المشهد الأول ولا علاقة له به، بل يجد بينهما أقوى الارتباطات، وألطف الوشائج، وهو ما يسهم في تحريك نشاط السامعين ويساعد على إصغائهم.

وبيان ذلك أنَّه لما قرَّر في المشهد الأول شدَّة بطش المولى ﷻ وعظيم انتقامه أردف ذلك بذكر نماذج من الأمم السابقة التي واجهتْ هذا البطش، وحلَّ بها ذلك الانتقام، ولذا خاطب النبي ﷺ مستفهماً استفهام تشويقٍ إن كانتْ هذه النماذج قد أتاه خبرها، وبلغه حديثها، وهو ما يؤكِّد من قوَّة هذا البطش، ويستشهد عليه بأمثلةٍ وشواهد عرفها العرب وسمعوا بها، وحين تأتي آيات المشهد الثاني بهذه النماذج المخيفة المرعبة تكون آيات المشهد الأول أشدَّ وقعاً في النفوس، وأكثر تأثيراً في القلوب، مع ما في ذلك من تسليةٍ له ﷺ، وتبشيرٍ بنصره على أعدائه، وتهديدٍ ووعيدٍ للمشركين الذين كذَّبوا به، وآذوه، وسخروا من أتباعه المؤمنين.

يقول البقاعي في بداية تفسيره للمشهد الثاني: «ولما تمَّت الدلالة على أنَّ بطشه شديد، قرَّره بما وُجد من ذلك، وذكَّره به تخويفاً وتسلية له؛ لأنَّ النظر في المحسوسات أمكن في النفوس فقال: (هل أتاك)»[١٢٠]، وربط الرازي هذا المشهد بموضوع السورة الذي كان عن أصحاب الأخدود، فقال: «اعلم أنه تعالى لما بين حال أصحاب الأخدود في تأذِّي المؤمنين بالكفَّار، بيَّن أنَّ الذين كانوا قبلهم كانوا أيضاً كذلك»[١٢١].

لقد جاءت هاتان الآيتان مستأنفتان لتقرير ما تقدَّم ذكره من بيان شدَّة بطشه ﷻ وكونه فعَّالاً لما يريده، من خلال ذكر النماذج الواقعية لهذه الحقائق، كما أنَّ في هاتين الآيتين تسليةً للرسول ﷺ عمَّا كان يُلاقيه من قومه من أذىً وصدود[١٢٢]، والمراد بالجنود ههنا الجماعات التي تجنَّدوا على أنبياء الله ﷻ واجتمعوا على ذريتهم، والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادي في الكفر والضلال، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال[١٢٣].

ومن بلاغة هذا الانتقال أسلوب الإيضاح بعد الإبهام الذي جاء المشهد الثاني من خلاله، فقد أثار الإبهام هنا شوقاً وترقُّباً لمعرفة هؤلاء الجنود وحديثهم المستفهم عن إتيانه، مما يجعله يُحرِّك من مشاعر المتلقِّي، ويزيد من ترقُّبه واشتياقه لما سيُذكر بعد ذلك، فإذا جاء الإيضاح تمكَّن في ذهنه، واستقرَّ في قلبه، ووقع في نفسه أجمل موقعٍ وأثبته.

كما أنَّ في هذا الأسلوب تهويلاً لأمر هؤلاء الجنود وتفخيماً لشأنهم، وهذا مما يزيد من شوق المتلقِّي في انتظار هذا الإيضاح، ويُلقي في روعه أبلغ صور الوعيد ومشاهد التخويف، لاسيما أنَّ السياق سياق استعراضٍ لقدرة الله ﷻ، وعرضٍ لشدَّة بطشه، وعظيم انتقامه.

ولعلَّ مما يلفت الانتباه في هذا الإيضاح اقتصاره على ذكر نموذجين فحسب من الأقوام الذين أهلكهم الله ﷻ بسبب طغيانهم وتكذيبهم لرسلهم وكفرهم بما كانوا يدعونهم إليه، وهما قوما (فرعون) و(ثمود)، على الرغم من أنَّ هناك أقواماً أخرى انتهجت النهج نفسه في التعامل مع الرسل من كفرٍ بهم، واستهزاءٍ بدعوتهم، وإيذاءٍ لهم ولأتباعهم، ولعلَّ هذا الاقتصار يعود إلى أمورٍ منها: شهرة قصة هذه الأقوام عند العرب في الجاهلية وعند أهل الكتاب، فقد كانوا يسمعون قصَّة فرعون وجنوده وقوم موسى عليه السلام، ورأوا آثار هلاك ثمود قوم صالح عليه السلام؛ لأنها كانت في ممرَّهم وفي بلادهم(١٢٤)، ثم إنه بهذا الاقتصار يكون القرآن الكريم قد جمع بين مُتقدِّمي الكفَّار ومتأخِّريهم(١٢٥).

كما أنَّ بين هاتين القصتين وبين قصَّة أصحاب الأخدود ما بينهما من المشاكلة والمشابهة، ففرعون طغى وادَّعى الربوبية، وكذلك فعل ملك الأخدود، وفرعون عذَّب بني إسرائيل وقد رأى من الآيات ما يدلُّ على صدق موسى عليه السلام،

وكذلك فعل ملك الأخدود بالمؤمنين حينما شقَّ الأخاديد وأهلكهم فيها بالنار وقد رأى ما يدلُّ على صدق الغلام، وفرعون عجز عن إدراك موسى عليه السلام، والملك عجز عن قتل الغلام، وكذلك آمن السحرة لما رأوا آية موسى عليه السلام، وكذا آمن الناس بربِّ الغلام، «فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة، وإن كان في الكلِّ عظةٌ وعبرة، ولكن هذا منتهى الإعجاز في قصص القرآن وأسلوبه»(١٢٦).

وكذلك ثمود لما كان منهم من مظاهر القوة والطغيان، وقد جمعهما الله عز وجل أيضاً في سورة الفجر في قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ (الفجر: ٩، ١٠) وهكذا جمعهما هنا.

والتفت البقاعي إلى سرٍّ آخر لهذا الإيضاح المخصوص بيَّنه بقوله: «وقد جمع سبحانه بهما بين العرب والعجم والإهلاك بالماء الذي هو حياة كلِّ شيءٍ والصيحة التي هي أمارة الساعة، وإنما كانت آيتهما أبين لأنَّ آية ثمود ناقةٌ خرجت من صخرةٍ صمَّاء، ومن آيات موسى عليه السلام إبداع القمل الذي لا يُحصى كثرةً من الكثبان، وإبداع الضفادع كذلك والجراد وإحياء العصا مرَّةً أخرى، ولا شكَّ عند عاقلٍ أنَّ مَن قدر على ذلك ابتداءً من شيءٍ لا أصل في الحياة فهو على إعادة ما كان قبل ذلك حيَّاً أشدُّ قُدرة»(١٢٧).

ولا يمكن أن أُغفل الجانب الصوتي الجميل الذي تحقَّق باختيار هذين القومين، وهو إيقاعٌ ينسجم مع المشهد الذي وردت فيه هاتين القصتين، فقد خُتمت فواصل هذا المشهد بدايةً من قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ بحرف الدال المجهور الشديد الانفجاري، وهو صوتٌ يتناسق مع الوعيد والتهديد الذي يطغى على جوِّ هذا المشهد الرهيب، وقد جاءت الفاصلة (ثمود) لتكمل التناسب مع هذا الجوِّ المجلجل.

والاكتفاء بذكر هؤلاء القوم دون التعرُّض للحديث عن قصصهم ومواقفهم وسوء عاقبتهم لشهرة كلِّ ذلك عندهم، ولأنه قد مضى ذكر قصصهم في غير موضعٍ من القرآن، إضافةً إلى أنَّ ذلك مما ينسجم مع جوِّ هذا المشهد الذي يتميَّز بالإيجاز والاختصار، والاكتفاء بالإشارة إلى الحدث دون الدخول في التفاصيل، والسرعة في الإيقاع، مما يتناغم مع قدرة الله ﷻ، والإيحاء بسرعة بطشه وانتقامه، بحيث لا يُبطئه شيءٌ ﷻ.

ومن المواضع التي اعتمد فيها القرآن الكريم على ذكر النموذج بوصفه غرضاً من أغراض الانتقال بين مشهدين في السورة ما جاء في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾، ثم قوله ﷻ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (البلد: ٨، ٩، ١١-١٦).

فقد كانت آيات المشهد الأول تتحدَّث عن الإنسان الكافر، الذي يتفاخر ببذل المال وإتلافه في غير صلاح؛ دليلاً على عدم اكتراثه به، وكيف أنه يحسب أنَّ لا أحد يطَّلع عليه ويعلم أنَّ افتخاره بذلك كذب وزور، وكيف يغفل المولى ﷻ عنه وهو الذي أنعم عليه هذه النعم، فجعل له عينين ولسانا وشفتين، وألهمه إدراك طريقي الخير والشر، وهداه إلى معرفة عاقبة كلِّ واحدٍ منهما.

ثم انتقل السياق إلى مشهدٍ آخر، حيث يعرض القرآن فيه على هذا الإنسان اقتحام العقبة التي تساءل عنها ثم فسَّرها بما سيأتي بيانه، وهنا يبرز السؤال: ما العلاقة بين المشهدين؟ وما مسوِّغات الانتقال بينهما؟ وما الرابط بين ذكر نعم الله ﷻ على هذا الإنسان وبين أن يُعرض عليه اقتحام العقبة؟

إنَّ التأمُّل في العلاقة بين المشهدين يكشف عن مدى بلاغة القرآن، واهتمامه بالتناسب بين مشاهده وحسن انسجامها، حتى إنَّ السامع لا يشعر بهذا الانتقال رغم تغيُّر الموضوع وتبدُّل السياق، غير أنَّ قوَّة الصلة بين المشهدين تجعل السورة كاللحمة الواحدة والمشهد المتَّحد، مما يجعل النفوس حائرةً في عظمة الإعجاز البياني، وروعة التعبير البلاغي لهذا الوحي الإلهي.

وذلك أنَّه لما كانت آيات المشهد الأول تُعدِّد بعض نعم الله ﷻ على هذا الإنسان الكافر الذي كان يتفاخر بإنفاق ماله في غير وجهه ذكر في هذا المشهد نماذج من السبل الصالحة والوجوه الفاضلة التي كان ينبغي عليه أن ينفق فيها ماله حتى ينال رضا ربِّه لو كان مؤمنا، ثم ينال رضا الناس؛ لأنها سبلٌ تنفعهم ووجوهٌ تفيدهم.

يقول الرازي بعد تفسيره لآيات المشهد الأول: «ثم إنه ﷻ دلَّ عباده على الوجوه الفاضلة التي تنفق فيها الأموال، وعرَّف هذا الكافر أنَّ إنفاقه كان فاسداً وغير مفيد، فقال تعالى: (فلا اقتحم العقبة)»[١٢٨]، ويقول النيسابوري في السياق نفسه: «ثم عرَّف عباده وجوه الإنفاق الفاضلة؛ تعريضاً بأنَّ ذلك الكافر لم يكن إنفاقه في وجهٍ مرضيٍّ معتدٍّ به؛ لابتناء قبول الطاعات على الإيمان الذي هو أصل الخيرات»[١٢٩]، وهي تفسيراتٌ تسعى إلى بيان الصلة بين المشهدين، وتركّز على ذكر نماذج من وجوه الخير وسبل الفضل التي حثَّ القرآن الكريم هذا الكافر على إنفاق ماله فيها بدلاً من تفاخره بغير ذلك، بوصفها العلاقة الوثيقة التي تربط بين المشهدين في السورة.

وقد توقَّف البقاعي عند هذا المشهد، وسعى إلى ربطه بالمشهدين السابقين، مشيراً إلى ذكر النموذج الذي استدعى المشهد الأخير منها، يقول: «ولما كان معنى ما مضى أنَّ هذا الإنسان عاجزٌ وإن تناهت قوته، وبلغت الذروة

قدرته،... وأنه معلومٌ جميع أمره، مفضوحٌ في سرِّه كما هو مفضوحٌ في جهره،... فهو موصولٌ إليه مقدورٌ عليه، وأنه كان يجب عليه الشكر على ما جعل له ﷻ من القوى التي جعلها لسوء كسبه آلات للكفر، سبب ﷻ عنه قوله تفصيلاً للأشياء الموصلة إلى الراحة في العقبى، نافياً لفعلها عنه على سبيل الحقيقة دلالة على عجزه: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾»(١٣٠).

ومن المواضع التي يرى المتدبّر فيها ذكر النموذج بوصفه غرضاً من أغراض الانتقال بين مشهدين في السورة الكريمة قوله ﷻ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ ثم قال ﷻ بعد ذلك: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ (الشمس: ١، ٢، ١١).

فقد أقسم الله ﷻ في المشهد الأول ببعض خلائقه العظيمة والمشاهد الكونية المتقابلة، كما أقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها الفجور والتقوى على حقيقةٍ كُبرى من حقائق النفس البشرية، وهي فلاح مَنْ زَكَّى نفسه ونمَّاها بطاعة الله ﷻ، وخيبة من أخفاها وحقَّرها وصغَّرها بمعصية الله ﷻ.

ثم انتقل السياق القرآني إلى الحديث عن قصة ثمود وما حصل منهم حين كذَّبوا رسولهم وعقروا الناقة التي أُرسلت لهم آية، فأهلكهم الله ﷻ بالصيحة، فلم تُبقِ منهم أحدا.

لقد كان المتلقي في المشهد الأول يصغي إلى قسمٍ عظيمٍ من أقسام المولى ﷻ، متفكّراً في تلك المشاهد الكونية التي وردت في سياقه، ومستحضراً عظمته ﷻ وكبير قدرته، وقد شدَّه طول المقسم به إلى التعرُّف على جواب القسم، واشتاقت نفسه إلى هذا الأمر الذي يقسم القرآن عليه بكلِّ هذه المخلوقات؛ لذا هو يرهف سمعه له، ويترقَّبه أشدَّ ترقُّب، فإذا وصل إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ

زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ تمكَّن في نفسه أشدَّ تمكُّن، واستوعبه قلبه أقوى استيعاب، فإذا ما حصل للمتلقِّي ذلك تفاجأ في الآية التي بعدها بتبدُّل السياق، وتغيُّر الموضوع، وإذا بالآيات الكريمة تنتقل إلى مشهدٍ جديدٍ وموضوعٍ مغاير، وتتحدَّث عن أمَّةٍ من الأمم التي كذَّبت برسولها، وكيف كان عقابهم، وهو ما يثير في المتلقِّي تساؤلاً له ما يُبرِّره، فما مسوّغ هذا الانتقال؟ وما الصلة التي بين المشهدين؟ وما الذي جعل القرآن الكريم يعقب مشهد القسم بمشهد قصَّةٍ من قصص الأمم البائدة؟

إنَّ المتأمِّل في هذه السورة الكريمة، والمتدبِّر في المشهدين اللذين تكوَّنت منهما سيدرك أنَّ هذا الانتقال لم يكن عبثاً أو اعتباطا، وحاشا أن يكون كذلك، بل له مناسبةٌ لطيفة، وسرٌّ بيانيٌّ بليغ، وذلك أنه ﷻ لما حكم بفلاح مَنْ زَكَّى نفسه وخيبة مَنْ دسَّاها ذكر في الآيات الباقية فِرقةً خابتْ وخسرتْ لتكون نموذجاً من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها كلُّ مَنْ يُدسِّي نفسه فيحجبها عن الهدى ويدنِّسها؛ حتى يُعتبر بهم، ويُنتهى عن مثل فعلهم[١٣١]؛ ولهذا ذكر بعض المفسِّرين أنَّ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ استئنافٌ واردٌ لتقرير مضمون قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾؛ لأنَّ الطغيان أعظم أنواع التدسية[١٣٢]، بل رأى بعضهم أنَّ الإرداف بخيبة مَنْ دسَّى نفسه إنما كان لتهيئة الانتقال إلى الموعظة بما حصل لثمود من عقابٍ على ما هو أثر التدسية[١٣٣].

إذن فقد كان المولى ﷻ يقسم في المشهد الأول من هذه السورة الكريمة بفلاح مَنْ زَكَّى نفسه، وخيبة مَنْ حرُم من ذلك فأطاع هواه وطغى وتكبَّر، وهو الموضوع الرئيس الذي قامت عليه السورة، والفكرة التي كانت الآيات تسعى إلى تأكيدها وترسيخها في النفوس، وهي حقيقةٌ تتكوَّن من جزئين رئيسين، الفلاح لمن زَكَّى نفسه، والخيبة لمن دسَّاها، ولما ذُكر الجزء الثاني منهما استدعى ذلك

المشهد الثاني الذي سعى فيه القرآن الكريم إلى الإفصاح عن نموذجٍ من النماذج التي توضِّح هذا الجزء، وتكشف عن خطورة عاقبته، كي تحصل العبرة والعظة، وحينها يستوعب المتلقِّي هذه الحقيقة المقرَّرة تنظيراً وتطبيقا، ويعيها قلبه وهو يصغي للعذاب الذي حلَّ بهؤلاء القوم الذين دسُّوا أنفسهم وحرموها من الهداية، حيث كذَّبوا برهم وعصوا أمر رسوله، فخابوا وخسروا، وحلَّ بهم الهلاك، ونزل بهم العذاب.

وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ جواب القسم محذوف، وتقديره: ليدمدمنَّ الله عليهم -أي على أهل مكَّة لتكذيبهم الرسول ﷺ- كما دمدم على ثمود لأنهم كذَّبوا صالحا، ورأوا أنَّ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ تابعٌ لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء[١٣٤]، ومهما يكن من شيءٍ فإنَّ المقصود من كلِّ ذلك التعريض بتهديد المشركين الذين كذَّبوا الرسول ﷺ طغياناً وكبرا، وذلك بتنظيرهم بثمود في أنَّ سبب تكذيبهم هو الطغيان والتكبُّر عن اتِّباع مَن لا يرون له فضلاً عليهم[١٣٥].

أمَّا تخصيص قصة ثمود هنا بالذكر دون بقيَّة الأمم فقد تعدَّدت أقوال المفسِّرين في ذلك، فرأى بعضهم أنه تعالى «خصَّهم لأنَّ آيتهم مع أنها كانت أوضح الآيات في نفسها هي أدلُّها على الساعة، وقريشٌ وسائر العرب عارفون بهم؛ لما يرون من آثارهم ويتناقلون من أخبارهم»[١٣٦]، ورأى بعضهم أنَّ السبب في ذلك أنهم أخفُّ الأمم المكذِّبة ذنباً وعذابا، فعاقبهم الله هذا العقاب الأليم، فكيف بمَن هم مثلهم أو أشدُّ منهم تكذيبا[١٣٧].

ورأى النيسابوري أنَّ تخصيص قصة ثمود بالذكر مناسبٌ لسياق السورة الذي جاء لبيان مراتب النفس في السعادة والشقاء، فهذه القصة مناسبة لأحوال النفس الإنسانية(١٣٨). ويقول ابن القيم: «المقصود أنَّ الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلالة والكفر عن علمٍ ويقين؛ ولهذا والله أعلم ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم في سورة (والشمس وضحاها)؛ لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية وإلى الفاجرة الضالة الغاوية، وذكر فيها الأصلين: القدر والشرع، فقال: (فألهمها فجورها وتقواها)، فهذا قدره وقضاؤه، ثم قال: (قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها)، فهذا أمره ودينه، وثمود هداهم فاستحبُّوا العمى على الهدى، فذكر قصَّتهم ليُبيّن سوء عاقبة مَن آثر الفجور على التقوى، والتدسية على التزكية»(١٣٩).

ومن المواضع التي يرى فيها المتأمّل ذكر النموذج بوصفه علاقةً يعتمد عليها القرآن الكريم في الانتقال من مشهدٍ إلى مشهدٍ في السورة ما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، ثم قوله ﷻ بعد ذلك: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى: ٥، ٦-٨).

فحين أقسم المولى ﷻ بالضحى والليل على أنه لم يترك نبيَّه ﷺ ولم يبغضه، وأنه سوف يعطيه العطاء الذي يرضيه، انتقل السياق القرآني إلى الحديث عن نعم الله ﷻ على الرسول ﷺ، وتذكيره بالمنن التي أفاضها عليه.

وقبل بيان العلاقة بين المشهدين أرى أنَّه لا بُدَّ من الكشف عن مناسبة نزول هذه السورة، فأغلب المفسِّرين(١٤٠) على أنَّ سبب نزولها هو إبطاء الوحي في أوائله على الرسول ﷺ حتى شقَّ ذلك عليه، وقد قال له المشركون حينها: إنَّ ربك قد قلاك وودَّعك وتركك؛ وذلك شماتةً منهم وفرحاً بهذه المصيبة التي حلَّت

على النبي ﷺ فأقضَّت مضجعه، وما بين هذه الشماتة التي أظهرها الكفار وذلك الكدر الذي حلَّ برسول الله ﷺ يأتي هذا القسم الإلهي ليُفنِّد مزاعم المشركين، ويُبطل دعواهم، ويُعرِّض بكذبهم وافترائهم، ويؤكِّد أنَّ هذا الإبطاء ليس بسبب توديعٍ أو قلى، وهذا الموقف من المشركين وذلك الشعور من النبي ﷺ لم يكن ينفع معهما إلا القسم الذي هو من أقوى المؤكِّدات وأشهرها، فييأس معه أولئك الشامتون، وتسكن معه نفس النبي ﷺ التي كانت في أشدِّ الحاجة إلى هذا التأكيد المطمئن، والملاحظ هنا أنَّ القسم في هذا المشهد لم يقف عند حدِّ ردِّ تلك الدعوى، بل تجاوز ذلك إلى بشارة النبي ﷺ بما ذُكر ليزداد مع سكونه واطمئنانه فرحاً وبهجة، ولتعظم في الوقت نفسه مصيبة الكفار، ويزداد غيظهم وحنقهم.

وبذلك تتَّضح ملامح العلاقة بين المشهدين، إذ كان المولى الكريم في المشهد الأول يقسم على أنَّه لم يودِّع رسوله ولم يبغضه؛ تبشيراً لنفسه وتطميناً لقلبه ﷺ، بل زاد على ذلك بأن وعده بالعطاء حتى الرضى، ثم جاء المشهد الثاني ليرسم نماذج من نعمه السابقة، وفضائله القديمة، ليؤكِّد من خلالها أنَّه -كما لم يتخلَّ عنه في السابق- فإنه لن يتخلَّى عنه في المستقبل، وهو ما يبعث في قلب المصطفى ﷺ الراحة والطمأنينة في وقتٍ كان أشدَّ ما يكون احتياجاً لهما، خاصَّةً أنه كان حينها يمرُّ بفترةٍ عصيبة، حيث انقطع عنه الوحي، فقال المشركون إنَّ ربه ودَّعه وقلاه، فجاءت هذه السورة الكريمة لتعيد إليه الأمل، وتشرح صدره بالبشارة، وتغيظ في الوقت نفسه المشركين، ليستمرَّ مجدَّداً في الدعوة الإسلامية كما كان في أول الأمر.

ويبيِّن الطاهر ابن عاشور -مفصحاً عن وشائج هذه العلاقة بين هذا المشهد وما قبله من مشاهد- أنَّ هذا المشهد: «استئنافٌ مسوق مساق الدليل على تحقُّق الوعد، أي هو وعدٌ جارٍ على سنن ما سبق من عناية الله بك من

بداية نشأتك ولطفه في الشدائد باطِّراد، بحيث لا يحتمل أن يكون ذلك من قبيل الصدف؛ لأنَّ شأن الصدف أن لا تتكرَّر، فقد علم أنَّ اطِّراد ذلك مراد الله تعالى»[١٤١]، ثم يكشف عن أنَّ من أغراض مجيء هذا المشهد بعد المشهد السابق «إيقاع اليقين في قلوب المشركين بأنَّ ما وعده الله به محقَّق الوقوع قياساً على ما ذكره به من ملازمة لطفه به فيما مضى، وهم لا يجهلون ذلك عسى أن يقلعوا عن العناد، ويُسرعوا إلى الإيمان، وإلا فإنَّ ذلك مساءةٌ تبقى في نفوسهم، وأشباح رعبٍ تخالج خواطرهم، ويحصل مع هذا المقصود امتنانٌ على النبي ﷺ، وتقويةٌ لاطمئنان نفسه بوعد الله تعالى إياه»[١٤٢].

لقد أفصحت النماذج السابقة عن شدَّة الترابط بين مشاهد سور القرآن الكريم، وعن عنايته الكاملة بحسن الانتقال بينها، كما أفصحت عن اهتمامه بذكر النموذج بوصفه إحدى العلاقات التي تربط بين مشاهده، وتجعلها كاللحمة الواحدة، حيث تُقرِّر آيات المشهد الأول حقيقةً من الحقائق التي يغلب على السور المكية تناولها، ثم يأتي المشهد الثاني ليذكر نماذج على هذه الحقيقة، تكون بمثابة الدليل والبرهان، أو بمثابة البيان والكشف، وهو ما يسهم في تحريك نشاط المستمع، ويساعد على إصغائه واستيعابه لما يُتلى من آيات.

الخاتمة:

حاولت هذه الدراسة أن تكشف عن أبرز الجماليات التي أحدثها حسن الانتقال والتخلص في المتلقين، خاصة في أولئك المشركين الذين كانت معظم هذه السور الكريمة توجه إليهم الخطاب في المقام الأول، حيث سعت إلى الوقوف عند الأسرار البلاغية واللفتات البيانية في انتقالات القرآن بين مشاهد سوره الكريمة، وانتهت الدراسة إلى مَجموعةٍ من النتائج سأسعى إلَى إجْمالِها فِي الآتِي:

١- كشفت هذه الدراسة -من خلال النماذج التي وقفت عندها وحللتها- عن شدَّة ترابط المشاهد في سور جزء عم، وأنَّ القرآن الكريم لا ينتقل من مشهد إلى مشهد دون أن يكون بينهما علاقة وثيقة، ومناسبة لطيفة، تجعل هذا الانتقال في غاية الإعجاز والبلاغة.

٢- كما أفصحت عن أنَّ الإنكار والتقرير من أهمِّ العلاقات التي تربط بين المشاهد في سور هذا الجزء، ففي الوقت الذي يتحدَّث فيه المشهد الأول في السورة عن إثبات أصلٍ من أصول الإيمان، ويسعى إلى تأكيد مبدأ رئيس من مبادئ الدعوة الإسلامية، يُعقِّب القرآن بمشهدٍ ثانٍ يكون بمثابة تقرير هذه الحقائق.

٣- برز غرض الإنكار والتقرير بوصفه من أبرز أغراض الانتقال بين مشاهد سور هذا الجزء، حيث إنَّ سوره من أوائل ما نزل من الذكر الحكيم، وكان الخطاب فيها موجها نحو مشركي مكة، وكان من الطبعي أن تؤكد مشاهد هذه السورة على حقائق الإيمان، وتقرر المشركين عليها، وتنكر عليهم جحدها والتكذيب بها، مع أنهم يرون الدلائل على صدقها، ويعاينون البراهين على صحتها.

٤- جاء غرض التدليل والتعليل وإثبات الحقائق بالحجة والبرهان من أبرز الأغراض والجماليات التي يؤدِّيها الانتقال بين مشاهد سور جزء عمَّ، وذلك من خلال تعليل ما يرد في المشهد السابق من إثباتٍ للدعائم والأصول التي قامت عليها الدعوة الإسلامية، أو من خلال التدليل على صحتها والتأكيد على صدقها، حتى تترسَّخ في النفوس وتثبت في العقول، فيكون الإيمان بغيرها تبعاً لَها.

٥- أوضحت الدراسة عن عناية القرآن الكريم بغرض التعليل والتدليل حين ينتقل من مشهد إلى مشهد، خاصة في سور هذا الجزء، حيث إنها تُمثِّل في مُجملها بدايات الدعوة الإسلامية التي كانت في ذلك الوقت تسعى إلى ترسيخ مبادئ الدعوة وأصول الإيمان لدى المخاطبين؛ ولذلك فقد كان تأييد هذه الأصول بالدليل القاطع والحجة الواضحة من أبرز وظائف الانتقال والتخلص من مشهد إلى مشهد في هذه السور الكريمة، وهو ما كان يحتاجه المخاطبون المنكرون في تلك الفترة.

٦- أفصحت النماذج المحللة في هذه الدراسة عن أنَّ القرآن الكريم قد يسعى في بعض المواضع إلى تحقيق غرض التسلية والتبشير حين ينتقل من مشهدٍ إلى مشهد، حيث إنَّ الفترة المكية المبكرة التي نزلت فيها كانت صعبة على المؤمنين لما لاقوه فيها من ضعف وذل وقلة وفقر، فجاءت الآيات لتربط على قلوبهم، وتسليهم بذكر مؤمني الأمم السابقة وما لاقوه من أقوامهم، وكيف كانت نتيجة كل من الفريقين، كما جاءت الآيات لتكشف لهم عن النعيم المقيم الذي ينتظرهم، خاصة بعد مشاهد العذاب الأليم الذي ينتظر أعداءهم الذين كانوا يسخرون منهم، ويصدونهم عن سبيل الله واتباع رسوله ﷺ.

٧- بينت هذه الدراسة اهتمام القرآن الكريم بذكر النموذج بوصفه علاقة وثيقة بين مشهدين في السورة، فحين تتحدث آيات المشهد الأول عن موضوع معين، أو تقرر حقيقة محددة، ثم تأتي آيات المشهد الثاني لتذكر نموذجا أو مجموعة من النماذج المتصلة بهذا الموضوع أو تلك الحقيقة، ويكون الهدف من ذلك التأكيد والتثبيت، أو إظهار عظمة المولى ﷻ وقدرته، أو التدليل على صدق ما تحدثت به آيات المشهد الأول، أو غير ذلك من الأغراض التي يريد القرآن الكريم تحقيقها من خلال ذكر هذه النماذج، وهو ما يسهم في تكوين صلة واضحة في ذهن المتلقي بين المشهدين في السورة الكريمة، ويكون الانتقال من الأول إلى الثاني فيها حاملاً لكثير من أسباب اللطافة والجمال.

هذا، ومن التوصيات التي يمكن تدوينها هنا ضرورة الاهتمام بدراسة انتقالات القرآن وتخلصاته، سعياً إلى تأكيد تماسك بنائه والتحام أجزائه، وهو وجه من وجوه إعجازه، كما توصي الدراسة بعقد موازنات بين التخلصات المكية والمدنية.

الهوامش والتعليقات:

(١) انظر: البرهان: ٣٥/١، الإتقان: ٧٢٤/٣، معترك الأقران: ٥٤/١ وما بعدها.
(٢) انظر: الإيضاح: ٦٠٩/٢، ٦١٠، شرح عقود الجمان: ١٧٣، ١٧٤، علوم البلاغة: ٣٩١.
(٣) انظر هذه التسميات في: العمدة: ٢٣٤/١، ٢٣٦، التبيان: ٥٤٦، ترجمان البلاغة: ٨٤، روضة الفصاحة: ١٥٥.
(٤) انظر: البديع: ٧٥.
(٥) انظر: كتاب الصناعتين: ٥١٣.
(٦) انظر: المثل السائر: ٢٢٨/٢.
(٧) انظر: البديع في نقد الشعر: ٢٨٨.
(٨) انظر: بديع القرآن: ١٦٧.
(٩) انظر: خزانة الأدب: ٣٩٩/٢.
(١٠) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع: ٤٧٢.
(١١) انظر: الإيضاح: ٦٠٥/٢ وما بعدها.
(١٢) بغية الإيضاح: ١٣١/٤.
(١٣) انظر: حلية المحاضرة: ٢١٥/١، المثل السائر: ٢٤١/٢، الإيضاح: ٦١٠/٢، دراسات منهجية: ١٢٢.
(١٤) انظر: الإيضاح: ٦١١/٢، علوم البلاغة: ٣٩٢، فنون بديعية: ٢٠٨.
(١٥) انظر: البرهان: ٤٣/١، الإنصاف في المصطلحات البلاغية المنفية في القرآن: ١٠٠.
(١٦) انظر: الطراز: ٣٣٠/٢، الأقصى القريب: ٨٤، بغية الإيضاح: ١٣٣/٤.
(١٧) بديع القرآن: ١٦٨.
(١٨) انظر: دراسات في علوم القرآن الكريم: ٤٤٥-٤٥٣، الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن سوره: ١١٦.
(١٩) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦٩/١٩، فتح القدير: ٣٦٢/٥، تيسير الكريم الرحمن: ٩٠٦.
(٢٠) انظر: في علوم القرآن: ٥٦، مباحث في علوم القرآن: ٤٦، ٤٧، المدخل لدراسة القرآن الكريم: ٢٢٨-٢٣٠، المعجزة الكبرى القرآن: ٢٤-٢٦، وانظر: بلاغة البديع في جزء عم: ١٨.

(٢١) التحرير والتنوير: ١٥/٣٠.
(٢٢) المرجع السابق: ١٦/٣٠.
(٢٣) انظر: المرجع السابق: ١٩/٣٠.
(٢٤) انظر تفسير هذه السور وسبب نزولها في: الكشاف: ١٢١٣، ١٢٢٠، ١٢٢٣، ١٢٢٧، معالم التنزيل: ٤٧٥/٤، ٤٩٢، ٥٠١، ٥١٢، تفسير القرآن العظيم: ٦٨٣/٤، ٧١٠، ٧١٨، ٧٣١، فتح القدير: ٤٦٩/٥، ٤٩٩، ٥١١.
(٢٥) انظر: التحرير والتنوير: ٦/٣٠.
(٢٦) انظر: روح المعاني: ٤/٣٠.
(٢٧) انظر: التحرير والتنوير: ٧/٣٠، ٨.
(٢٨) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: ٣٣٧/٤.
(٢٩) انظر: تفسير أبي السعود: ٨٤/٩، التحرير والتنوير: ٩/٣٠.
(٣٠) انظر: تفسير أبي السعود: ٨٥/٩، روح المعاني: ٦/٣٠.
(٣١) انظر: التحرير والتنوير: ١٠/٣٠.
(٣٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٨٥/٩، روح المعاني: ٦/٣٠، التحرير والتنوير: ١٠/٣٠.
(٣٣) انظر: الكشاف: ١١٧١، تفسير أبي السعود: ٨٦/٩، روح المعاني: ٧/٣٠، ٨، أضواء البيان: ٥٣٦/٥.
(٣٤) الكشاف: ١١٧١.
(٣٥) نظم الدرر: ٢٩٧/٨.
(٣٦) التفسير الكبير: ٤٢/٣١.
(٣٧) تفسير أبي السعود: ١٠١/٩.
(٣٨) أضواء البيان: ٥٤٥/٥.
(٣٩) انظر: التفسير الكبير: ٧٣/٣١، التفسير المنير: ٩٩/٣٠.
(٤٠) انظر: لباب النقول: ٢٠٩.
(٤١) انظر: جامع البيان: ١٣٢/٢٤، التحرير والتنوير: ١٥٣/٣٠، التفسير المنير: ٩٩/٣٠.
(٤٢) نظم الدرر: ٣٤٨/٨.
(٤٣) التحرير والتنوير: ١٥٣/٣٠.
(٤٤) تفسير أبي السعود: ١٢١/٩.
(٤٥) نظم الدرر: ٣٤٩/٨.

(٤٦) غرائب القرآن: ٧١/٣٠.
(٤٧) انظر: التفسير الكبير: ٧٤/٣١.
(٤٨) التحرير والتنوير: ١٥٤/٣٠.
(٤٩) انظر: معالم التنزيل: ٤٢٥/٤، زاد المسير: ٢١٥/٨.
(٥٠) تفسير القرآن العظيم: ٦١٩/٤.
(٥١) المرجع السابق: ٦٢٠/٤.
(٥٢) تفسير أبي السعود: ١٢١/٩، وانظر: روح المعاني: ١١٢/٣٠.
(٥٣) التفسير الكبير: ٧٤/٣١.
(٥٤) انظر: غرائب القرآن: ٤٣/٣٠، أنوار التنزيل: ٢٩٢/٥، التفسير الكبير: ٧٥/٣١.
(٥٥) انظر: المحرر الوجيز: ٢٩٧/١٦.
(٥٦) انظر: أنوار التنزيل: ٣١٠/٥، تفسير المراغي: ١٤٦/٣٠/١٠، التفسير الوسيط: ٣٨٩/١٥.
(٥٧) انظر: التحرير والتنوير: ٢٨٦/٣٠، ٢٨٧.
(٥٨) انظر: المرجع السابق: ٢٨٧/٣٠.
(٥٩) نظم الدرر: ٢٩٩/٨.
(٦٠) غرائب القرآن: ١٧/٣٠.
(٦١) تفسير أبي السعود: ٨٨/٩.
(٦٢) انظر: التحرير والتنوير: ٢٦/٣٠.
(٦٣) انظر: نظم الدرر: ٣٨٠/٨، التحرير والتنوير: ٢٢١/٣٠.
(٦٤) انظر: التفسير الكبير: ١١٤/٣١، تفسير المراغي: ١٠٤/٣٠/١٠.
(٦٥) انظر: جامع البيان: ٢٨٢/٢٤.
(٦٦) انظر: التحرير والتنوير: ٢٢٢/٣٠.
(٦٧) التحرير والتنوير: ٢٢٢/٣٠.
(٦٨) نظم الدرر: ٣٦٤/٨.
(٦٩) التحرير والتنوير: ٢٢٢/٣٠.
(٧٠) التفسير الكبير: ٩٤/٣١، وانظر: حاشية زاده: ٥٤٣/٨، والتفسير المنير: ١٣٢/٣٠.
(٧١) غرائب القرآن: ١٦٨/٣٠، وانظر: المحرر الوجيز: ١١٢/١٦، التحرير والتنوير: ١٨٥/٣٠.
(٧٢) فقد روى البخاري ذلك في صحيحه: كتاب التفسير، باب (قوله: خلق الإنسان من علق)، ح ٤٩٥٥، (٥٩٤/٨)، ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب (بدء الوحي=

= إلى الرسول ﷺ)، ح ١٦٠، (١٦٨/٢)، وانظر: معاني القرآن، الفراء: ٢٧٨/٣، الجامع لأحكام القرآن: ١١٧/٢٠، التفسير الكبير: ٢١٥/٣٢، تفسير القرآن العظيم: ٦٨٢/٤، معالم التنزيل: ٤٧٤/٤، تيسير الكريم الرحمن: ٩٣٠.

(٧٣) انظر: التحرير والتنوير: ٣٨٣/٣٠، أضواء البيان: ٨٨/٦.

(٧٤) انظر: التحرير والتنوير: ٣٨٨/٣٠.

(٧٥) انظر: البحر المحيط: ٤٨٩/٨، فتح القدير: ٤٦٨/٥، حاشية زاده: ٦٤١/٨، الفتوحات الإلهية: ٥٦٢/٤، التحرير والتنوير: ٣٩٠/٣٠-٣٩٢.

(٧٦) انظر: التحرير والتنوير: ٣٩٠/٣٠.

(٧٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٢٣/٢٠، التفسير الكبير: ٢١٩/٣٢.

(٧٨) انظر: التفسير الكبير: ٢٢٠/٣٢، نظم الدرر: ٤٨٢/٨، ٤٨٣.

(٧٩) انظر: جامع البيان: ٥٣٢/٢٤، حاشية زاده: ٦٤٠/٨.

(٨٠) انظر: النكت والعيون: ٣٠٦/٦، ٣٠٧، تفسير القرآن العظيم: ٦٨٣/٤.

(٨١) انظر: حاشية الشهاب: ٣٧٩/٨، روح المعاني: ٣٢٦/٣٠.

(٨٢) انظر: غرائب القرآن: ١٣٥/٣٠، روح البيان: ٤٧٤/١٠.

(٨٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٦٠٠/٤، معالم التنزيل: ٤١٠/٤.

(٨٤) التفسير الكبير: ٣٨/٣١، وانظر: أنوار التنزيل: ٢٨٣/٥، غرائب القرآن: ١٩/٣٠.

(٨٥) انظر: البحر المحيط: ٤١٣/٨.

(٨٦) التحرير والتنوير: ٧٤/٣٠.

(٨٧) تفسير القرآن العظيم: ٦٠٢/٤.

(٨٨) البحر المحيط: ٤١٣/٨.

(٨٩) فتح القدير: ٣٧٥/٥.

(٩٠) انظر: بحر العلوم: ٤٢٠/٣، أنوار التنزيل: ٢٧٨/٥.

(٩١) انظر: غرائب القرآن: ٧٧/٣٠.

(٩٢) نظم الدرر: ٣١٣/٨.

(٩٣) انظر: أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم: ١٣٣/٤.

(٩٤) البحر المحيط: ٤٥٤/٨.

(٩٥) التفسير الكبير: ١٣٠/٣١.

(٩٦) الدر المنثور: ٤٠٢/١٥.

(٩٧) تفسير أبي السعود: ١٤٤/٩.
(٩٨) فتح القدير: ٤٢٤/٥.
(٩٩) انظر: التحرير والتنوير: ٢٤٨/٣٠.
(١٠٠) انظر: جامع البيان: ٢٧٥/٢٤.
(١٠١) انظر: صفوة التفاسير: ٥٥١/٣، التفسير المنير: ٢٠٢/٣٠، ٢٠٣.
(١٠٢) انظر: تفسير أبي السعود: ١٤٨/٩، البحر المحيط: ٤٥٨/٨.
(١٠٣) انظر: حاشية زاده: ٥٨٣/٨، روح البيان: ٤١٢/١٠.
(١٠٤) وقرينة ذلك قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾، انظر: التحرير والتنوير: ٢٦٢/٣٠.
(١٠٥) وعلاقته الجزئية، انظر: تفسير الخازن: ٢٣٧/٦، صفوة التفاسير: ٥٥٤/٣، التفسير المنير: ٢٠٤/٣٠.
(١٠٦) غرائب القرآن: ٨١/٣٠، وانظر: الفتوحات الإلهية: ٥٢٤/٤.
(١٠٧) حاشية الشهاب: ٣٥٢/٨، وانظر: روح المعاني: ٢٠١/٣٠.
(١٠٨) انظر: تفسير أبي السعود: ١٤٨/٩، أنوار التنزيل: ٣٠٧/٥.
(١٠٩) انظر: التحرير والتنوير: ٢٦٣/٣٠.
(١١٠) انظر: النكت والعيون: ٢٥٩/٦، اللباب: ٣١٤/١٦، التحرير والتنوير: ٢٦٣/٣٠.
(١١١) التسهيل: ٣٧٨/٤، ولا تعارض بين هذه الآية وقوله ﷻ: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ (الحاقة: ٣٦)؛ لأنَّ النار على دركات وعلى قدر الذنوب تقع العقوبات، فمنهم من طعامه الزقُّوم، ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد، انظر: بحر العلوم: ٤٧٣/٣، تفسير الخازن: ٢٣٨/٦، الفتوحات الإلهية: ٥٢٥/٤
(١١٢) انظر: الكشاف: ١١٩٧، إعراب ثلاثين سورةً من القرآن الكريم: ٦٧، اللباب: ٣١٦/١٦.
(١١٣) انظر: غرائب القرآن: ٨١/٣٠، نظم الدرر: ٤٠٥/٨.
(١١٤) انظر: تفسير أبي السعود: ١٤٩/٩، ١٥٠، روح المعاني: ٢٠٥/٣٠.
(١١٥) انظر: التحرير والتنوير: ٢٦٤/٣٠.
(١١٦) انظر: المرجع السابق: ٢٦٧/٣٠، بلاغة البديع في جزء عم: ١٩٠.
(١١٧) انظر: التحرير والتنوير: ٢٦٨/٣٠، ٢٦٩.
(١١٨) دراسات أسلوبية في النصِّ القرآني: ٢٠.
(١١٩) انظر: المقابلة في القرآن الكريم: ٢١٩.

(١٢٠) نظم الدرر: ٣٩١٩/٦.
(١٢١) التفسير الكبير: ٣٩١٩/٦.
(١٢٢) انظر: فتح القدير: ٤١٤/٥.
(١٢٣) انظر: روح المعاني: ١٦٦/٣٠، ١٦٧.
(١٢٤) انظر: البحر المحيط: ٤٤٥/٨، روح البيان: ٣٩٥/١٠، تفسير الخازن: ٢٣١/٦.
(١٢٥) انظر: غرائب القرآن: ٦٧/٣٠.
(١٢٦) أضواء البيان: ١٩/٦، ٢٠.
(١٢٧) نظم الدرر: ٣٨٢/٨.
(١٢٨) التفسير الكبير: ١٦٨/٣١.
(١٢٩) غرائب القرآن: ١٠٢/٣٠.
(١٣٠) نظم الدرر: ٤٣١/٨.
(١٣١) انظر: البحر المحيط: ٤٧٥/٨، المحرر الوجيز: ٣١٢/١٦.
(١٣٢) انظر: تفسير أبي السعود: ١٦٤/٩، روح المعاني: ٢٥٨/٣٠، روح البيان: ٤٤٥/١٠.
(١٣٣) انظر: التحرير والتنوير: ٣٢٧/٣٠.
(١٣٤) انظر: الكشاف: ١٢٠٦، مدارك التنزيل: ٣٦١/٤.
(١٣٥) انظر: التحرير والتنوير: ٣٢٨/٣٠، ٣٢٩.
(١٣٦) نظم الدرر: ٤٤٢/٨.
(١٣٧) انظر: بدائع التفسير: ٢٣٠/٥، ٢٣١.
(١٣٨) انظر: غرائب القرآن: ١٠٦/٣٠.
(١٣٩) مفتاح دار السعادة: ١١٩/١.
(١٤٠) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٦٧٤/٤، البحر المحيط: ٤٨١/٨، الدر المنثور: ٤٨٠/١٥.
(١٤١) التحرير والتنوير: ٣٥٢/٣٠.
(١٤٢) المرجع السابق نفسه.

المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، اعتنى به: صلاح الدين العلايلي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن سوره، أحمد يوسف قاسم، دار المطبوعات الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.
- إعراب ثلاثين سورةً من القرآن الكريم، ابن خالويه، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، (د.ط)، ١٣٦٠هـ.
- الأقصى القريب في علم البيان، التنوخي، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٧هـ.
- الإنصاف في المصطلحات البلاغية المنفية من القرآن، عبدالمحسن العسكر، دار التوحيد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، إعداد وتقديم: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (د.ت).
- أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د. عبد الله محمود شحاتة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي ود. عبد العزيز شرف، دار الكتاب المصري: القاهرة، ودار الكتاب اللبناني: بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٢٠هـ.
- بحر العلوم، السمرقندي، تحقيق: علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

- بدائع التفسير، ابن القيم، جمعه ووثق نصوصه: يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت).
- البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، تحقيق: د. أحمد أحمد بدوي ود. حامد عبد المجيد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، القاهرة، (د.ط)، ١٣٨٠هـ.
- البديع، ابن المعتز، شرحه وحققه: الأستاذ عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، مصر، الطبعة السابعة، ١٤١٠هـ.
- بلاغة البديع في جزء عم، عمر بن عبدالعزيز المحمود، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ
- التبيان في علم البيان، الطيبي، تحقيق ودراسة: د. عبد الستار حسين زموط، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- التحرير والتنوير، ابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- ترجمان البلاغة، محمد بن عمر الرادوياني، ترجمة وتعليق: محمد نور الدين عبد المنعم، دار الثقافة، القاهرة، (د.ط)، ١٩٨٧م.
- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد الغرناطي، تحقيق: محمد اليونسي وإبراهيم عوض، دار الكتب الحديثة، (د.ط)، (د.ت).
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مكتبة دار الفيحاء، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر: بيروت، دار الفكر: دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، (د.ط)، ١٩٩٨م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله التركي، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، المكتبة الإسلامية، تركيا، (د.ط)، (د.ت).
- حلية المحاضرة، الحاتمي، تحقيق: د. جعفر الكتاني، دار الرشيد، العراق، (د.ط)، ١٩٧٩م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، دراسة وتحقيق: د. كوكب دياب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- دراسات في علوم القرآن الكريم، فهد الرومي، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، الطبعة الرابعة عشرة، ١٤٢٦هـ.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. عبدالله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- دراسات أسلوبية في النص القرآني، فايز القرعان، عالم الكتب، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
- دراسات منهجية في علم البديع، د. الشحات محمد أبو ستيت، دار خفاجي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- روح البيان، البروسوي، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٠٥هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، قرأه وصححه: محمد حسين العرب، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- روضة الفصاحة، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: د. خالد عبد الرؤوف الجبر، دار وائل للنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- زاد المسير، ابن الجوزي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

- شرح عقود الجمان، السيوطي، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، (د.ط)، ١٣٥٨هـ.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، مطابع الدوحة الحديثة، الدوحة، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، مراجعة وضبط وتدقيق: جماعة من العلماء، مكتبة المعارف، الرياض، (د.ط)، ١٤٠٠هـ.
- علوم البلاغة، أحمد المراغي، المكتبة المحمودية، الطبعة الخامسة، (د.ت).
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م.
- عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الحسن بن محمد النيسابوري، تحقيق ومراجعة: إبراهيم عطوه عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، شرح وتصحيح وترتيب: محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
- فتح القدير، الشوكاني، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، ١٤٠٣هـ.
- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر العجيلي (الجمل)، مطبعة عيسى البابي، مصر، (د.ط)، (د.ت).
- فنون بديعية، د. أحمد هلال، التركي للكمبيوتر، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
- في علوم القرآن، محمد عبد السلام كفافي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود الزمخشري، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.
- لباب التأويل في معاني التنزيل، علي محمد البغدادي (الخازن)، مطبعة مصطفى البابي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ.

- لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل عبد الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة ١٩، ١٩٩٦م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تحقيق: الشيخ كامل محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: المجمع العلمي بفارس، (د.ط)، ١٤١١هـ.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات النسفي، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، دار اللواء، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
- معالم التنزيل، البغوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- معاني القرآن، الفراء، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
- المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
- مفتاح دار السعادة، ابن القيم، رئاسة إدارة البحوث العلمية، السعودية، (د.ط)، (د.ت).
- المقابلة في القرآن الكريم، د. بن عيسى با طاهر، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، القاسم بن محمد السجلماسي، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، الدار العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- النكت والعيون، الماوردي، راجعه: عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب، (د.ط)، (د.ت).